عِطرُ الغَرام

رواية

محمد العون

obeikan.com

PDF processed with CutePDF evaluation edition www.CutePDF.com

محمد العون: عِطرُ الغَرام (رواية)

الحضارة للنشر

7 شارع أبو السعود – الدقى 12311 – القاهرة

Al-Hadara Publishing
7 Abou El-Seoud Street
Dokki 12311, Cairo, Egypt

Tel.: (20-2) 37 61 94 39
Mobile: (20-122) 316 48 67

www.alhadara.com

الطبعة الأولى: يوليو 2015

رقم الإيداع بدار الكتب 14529 /2015
ISBN 978-977-476-237-3

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

obeikan.com

إلى الذين يقرأون بقلوبهم ومشاعرهم والذين عرفوا الحب الأول..

obeikan.com

obeikan.com

1

فى اللحظة الأولى التى وقعت عينَّى عليها لم تلفت نظرى، رأيت أنها عادية، على قدر لا يستهان به من الجمال، لكنها لم تعجبنى!

كنا فى الصباح الباكر لأحد أيام الشتاء، والأتوبيس المنطلق بنا فى أولى رحلاتنا الجامعية إلى الفيوم، مرصع بعدد كبير من الفتيات، ونحن جميعاً نضحك ونمرح بسعادة لا تعرف حداً.

مال علىَّ صديقى أحمد عبد الله وهمس فى أذنى.

– هذه الفتاة جميلة.

التفت إليه فوجدته يشير بعينيه وطرف إصبعه ناحيتها، كان هناك فتاتان تجلسان على المقعد الثانى قرب المقدمة فى الصف المقابل لنا، سألته.

– من منهما تعنى؟

فقال وعيناه تلمعان.

– التى ترتدى البلوفر الأزرق فى أحمر.

– آه.. لا بأس بها.

– هكذا فقط، يا لك من مغرور!

ضحكنا ثم لم نلبث أن انشغلنا مع باقى أصدقائنا فى الكلام والضحك، الذى كان ينطلق بسبب وبلا سبب فى أغلب الأحيان!

لاحظت أن صديقى يتابع هذه الفتاة ويهتم بأمرها ونحن نتحرك وسط حدائق الفيوم، ويحاول جذب اهتمامها بهذه الطرق المعروفة بين الشبان الصغار، كان كمعظم زملائنا يولى أمر الفتيات اهتماماً عظيماً، ويرى أن أروع ما فى الجامعة تلك الحرية التى تتيح مصادقة الفتيات والتعرف عليهن بهذه البساطة المدهشة، لكنه مع ذلك لم تؤته الجرأة على الكلام معها، فبراءة الثامنة عشرة كانت ما تزال تغلف سلوكنا بالحياء الفطرى الذى أخذنا نفقده بعد ذلك تدريجياً مع توغلنا فى الحياة!

مجموعتنا الكبيرة من الأصدقاء والصديقات، كانت تتسيد الرحلة وتفرض نفسها على كل من حولها وتشيع المرح والضحكات مما جعلنا محط أنظار الجميع، كنا نشعر بالتقارب فيما بيننا حيث نشترك جميعاً فى الحرف الأول من الاسم وفى الاسم الأول نفسه فى كثير من الأحيان، مما جعلنا ننادى بعضنا باسم الأب أو الجد، فقد كانت الدفعة تقسم إلى أقسام حسب الحروف الأبجدية، فصداقتنا محض صدفة رتبها القدر!

كان من الواضح أن هذه الفتاة ليس لها مجموعة أو شلة أصدقاء، كانت هى وصديقتها منعزلتين عن الجميع، لكن يبدو أنهما استلطفتا مجموعتنا فظلتا على مقربة منا ونحن نتمشى على شاطئ بحيرة قارون قرب المرسى، نشاهد قوارب الصيد الصغيرة والأمواج الهادئة تداعبها، وننتقل من مكان لآخر ولا نهدأ لحظة حتى انتصف النهار.

جلسنا فى إحدى الكافيتريات حتى نرتاح لبعض الوقت ونحتسى مشروباً – كنت بحاجة ملحة لكوب من الشاى – ونأكل وجبة ساندويتشات خفيفة، اخترنا أن نجلس فى حديقة الكافتيريا المليئة بالأشجار ونباتات الزينة، وجلست الفتاة وصديقتها على مقربة منا، ولم تلبث صديقتها أن اشتركت فى الحديث مع زميلاتنا، وظلت هى على حيائها تنظر إلينا وعلى وجهها ابتسامة الموناليزا الناعمة.

لم يكد عمال الكافتيريا يحضرون لنا المشروبات والساندويتشات، حتى أخذ المطر فى الهطول، فحملنا كل ما أحضروه وأسرعنا إلى الداخل لنجلس فى الفرانده الواسعة المطلة على الحديقة والمحمية بسقف يظللها، أخذنا نضحك ونحن نرتب أنفسنا من جديد على الكراسى ونضع الأكواب والفناجين على المناضد، ونتطلع إلى قطرات المطر وهى تتخلل أوراق الأشجار فى رخات خفيفة متتابعة أنعشت الجو، خاصة والشمس ظلت ترسل أشعتها الدافئة عبر السحب لتصنع لوحة بديعة من لوحات الطبيعة، بدا الجو شاعرياً حالماً، وجلسنا شبه صامتين نحتسى مشروباتنا ونستمع إلى صوت فيروز الملائكى الذى سرى منسجماً مع الشاعرية المحيطة بنا، من جهاز كاسيت أحضره زميلنا فى القسم أشرف عبد السلام.

غادرتنا الفتاة بعد انتهاء المطر، وفوجئت بعبد الله ينظر إلىَّ ويبتسم ابتسامة ماكرة ويقول.

– كانت تنظر إليك..

أدهشنى هذا وتحيرت ولم تسعفنى الإجابة، وربما اعترانى شعور أقرب للخجل وإن خالطه شىء من الزهو، لكننى نظرت إليه وأنا أرفع كتفىَّ وأهز رأسى هزة واحدة لأعلى، بما يعنى أن الأمر لا يهمنى، لكنى لم ألبث أن عرفت من الفتيات أنها تسكن فى مصر الجديدة، نفس الحى الذى أسكنه والذى وُلدت فيه، وفى ميدان سفير تحديداً مما يعنى أنها تسكن قريباً من منزلى، وأننا ليس فقط ننتمى لحى واحد، ولكننا أيضاً نقطن نفس المنطقة داخل هذا الحى.

***

بعد أن قضينا يوماً جميلاً استمتعنا بكل لحظة فيه، بدأنا رحلة العودة فى الساعة الخامسة، وهو موعد إذاعة أم كلثوم، وحدث جدل بيننا، فقد أراد البعض الاستماع إلى فيروز فى الشريط المسجل وعلى رأسهم زميلنا أشرف صاحب الكاسيت، ولعدة دقائق تناقش الجميع وعقدوا المفاضلة، وحدث هرج وأخذ أراء، فى نفس الوقت الذى كانت تحدث فيه حركة تبديل للأماكن، حيث أراد البعض الجلوس بجانب أصدقاء جدد تعرفوا عليهم أثناء الرحلة، وهكذا وجدنا الفتاة وصديقتها تجلسان فى المقعد الذى أمامنا مباشرة.

قال لى عبد الله وهو فى حالة من الابتهاج لهذا التقارب غير المتوقع.

– ما رأيك، سأسألها إذا كانت تفضل أم كلثوم أم فيروز؟

لكننى لم أرحب بهذا وقلت له.

– وماذا لو أحرجتك أو ردت عليك بشكل غير لائق وصدتك.

ولم أكن مغالياً فى رأيى، فهذا التصرف كان يحدث كثيراً من الفتيات، وبعضهن كن يغالين فى الرد ليقطعن على الشاب أى أمل، ولما كان هو نفسه برغم وسامته وأناقته قد تعرض لهذه المواقف من قبل بحكم تلقائيته وطبيعته المندفعة، فقد تراجع ولم يغامر، ليس اقتناعاً بوجهة نظرى ولكن خوفاً من التهزىء العلنى وسط الأتوبيس، والبهدلة بين طلبة الرحلة!

عبد الله أتى إلى مصر منذ شهور قليلة ليلتحق بالجامعة، تعلم وعاش مع أسرته فى إحدى دول الخليج العربى حيث يعمل والده حتى حصل على الثانوية العامة، عاد إلى وطنه وحيداً دون أسرته ليعيش مع جدته فى شقتها، وغريباً عن بلده وعاداته وثقافته، وبنهم كبير للحرية ورغبة عارمة فى الانطلاق والضحك والمرح!

جلسنا نستمع إلى أم كلثوم وهى تغنى فات الميعاد، لتظل بعدها هذه الأغنية مرتبطة فى ذاكرتى بهذه اللحظات، لا أسمعها إلا وأتذكرها وهى تجلس أمامى تتحدث مع صديقتها بصوتها الخافت، أو تتطلع من النافذة بعينيها الحالمتين.

كانت الساعة تقترب من السابعة عندما نزلنا من الأتوبيس قرب ميدان التحرير، اتجهت إلى محطة الأتوبيسات الرئيسية التى كانت شبه خالية على أثر المطر الذى أحالها إلى بركة كبيرة تتخللها الأرصفة الموحلة، وبرد يناير قد أخذ يشتد فبدت المحطة الكبيرة

بإضاءتها الخافتة موحشة وإلى حد ما مُقبضة، كانت مجموعاتنا الصغيرة تفد تباعاً وتعلن عن قدومها بالثرثرة والضحكات ثم لا تلبث أن تتفرق على الأرصفة، رأيتها من بعيد وهى تقترب على مهل لتقف على بعد خطوتين منى، التفت ناحيتها فالتقت أعيننا، سارعت بتحيتها فردت تحيتى بهزة من رأسها ثم أدارت وجهها خفراً لتنظر أمامها.

كنا نقف على رصيف مصر الجديدة بمفردنا تقريباً، وقفت أتأملها، بيضاء ناصعة اللون، معتدلة القامة ليست بالطويلة ولا القصيرة، رشيقة الجسد تميل للنحافة لكنها بضة اليدين والكفين، شعرها أسود قصير بالكاد يلامس كتفيها، ليس ناعماً تماماً لكنه مصفف بعناية، أنيقة المظهر، ثيابها راقية الذوق غالية الثمن، ملامحها دقيقة.. أنفها صغير مستقيم، فمها الصغير يبدو دائرياً كالخاتم، أما عيناها السوداوان فناعستان حالمتان كثيفتا الأهداب، لكن أهم ما يميزها هذه الرقة المفرطة التى تبدو فى كل ملمح منها، كما أنها تعطى هذا الشعور بالبراءة والطهر الذى يجبر أى شاب على احترامها.

إنها جميلة بلا شك.. لكنه جمال ذو طبيعة خاصة، خافت ناعم، لا يلفت النظر ولا يثير الاهتمام من الوهلة الأولى، لم يكن هذا النوع من الجمال يستهوينى وقتها، وأحس بحياد مشاعرى تجاهه، كنت أميل للشقراوات وأحلم بفتاة زرقاء العينين ذات شعر ذهبى طويل

وجسد يتفجر بالأنوثة، تلوى أعناق الرجال إذا مرت فى الطريق، أمشى بجانبها مزهواً والجميع يحسدوننى..

أفكار صبيانية بالطبع، لكن هكذا كنت أفكر وقتها فى هذه السن المبكرة! تركتها تصعد الأتوبيس أولاً ثم صعدت خلفها، للحظة فكرت أن أدفع لها التذكرة، ثم عدلت خجلاً وخوفاً أن تسىء فهم تصرفى فتعتقد أنى مهتم بها أو معجب أو أنى أسعى للتعرف عليها بهذا الأسلوب اللزج، جلست خلفها كما كنا نجلس فى أتوبيس الرحلة، وأخذت أسترق النظر إليها بين الحين والآخر عبر المشوار الطويل من ميدان التحرير إلى مصر الجديدة.

نزلنا معاً فى نفس المحطة سلمت عليها ومضيت بمفردى، لكن ابتسامتها الواسعة ظلت تطاردنى، هناك شىء ما فيها يجذبنى إليها.. لا أعرف ما هو.. شىء يتعلق بالروح، بالطبيعة التى تكمن داخل النفس، لم أستطع منع نفسى من التفكير فيها وأنا أسير إلى البيت، لم أتكلم معها كلمة واحدة أثناء المشوار الذى قطعناه معاً ولا خلال اليوم الذى قضيناه، لكن هذه الابتسامة الجميلة التى أشرقت على وجهها وهى تسلم علىَّ بعد نزولنا فى المحطة حيرتنى، سارت متجهة ناحية شارع العروبة غرب الميدان، بينما أسكن أنا فى المنطقة المواجهة باتجاه الشرق.

فى هذه الأثناء كانت حركة التعرف على أصدقاء جدد تتم بشكل مستمر، فالجميع مقبلون على الحياة الجامعية بصدور مفتوحة وأمال تسعى للمستقبل بسعادة وانطلاق، لذلك لم ألبث أن نسيت هذه الفتاة التى لم أكن أعرف اسمها بعد، واندمجت فى الحياة الجديدة بكل طاقتى الفتية، كنت ألمحها على البعد أحياناً فى طرقات الكلية أو فى مدرج المحاضرات، لكننى لم ألتق بها عن قرب وسط أمواج طلاب دفعتنا التسعمائة.

حدث هذا مع عبد الله، تقابل معها مصادفة على سلم المدرج فسلم عليها هى وصديقتها، وبأسلوبه المرح وشخصيته المحبة للآخرين وقف يتكلم معهما عن أحداث الرحلة، ليخبرنى بعدها أنى لم أكن محقاً بشأنها، فهى لطيفة جداً ومهذبة لا يمكن أن تحرج أحداً، كما اعتقدت ونحن فى الأتوبيس.

– طيب، هنيئاً لك.

أجبته مبتسماً دون أن ألقى بالاً، كانت هناك فتاة شقراء ممشوقة القوام ذات شعر ذهبى طويل داكن اللون، ترتدى على الدوام بنطلون جينز ضيقاً يُظهر جمال ساقيها وتناسق جسدها، كنت أرها فى الأتوبيس أحياناً سواء فى طريق الذهاب أو العودة من الكلية، تركب من محطة عند نهاية مصر الجديدة، استهوانى جمالها منذ الأيام

الأولى لنا فى الكلية، تمنيت أن أتعرف عليها، لكنها كانت محاطة طوال الوقت بزملائها وزميلاتها فى القسم، ولم يكن أمامى فرصة لاقتحام هذا الحصار دون الدخول فى صراع وربما شجار مع الطلاب فى شلتها!

كانت المشاجرات تحدث كثيراً بين طلاب دفعة سنة أولى لهذا السبب، وكنا نحن نفعل نفس الشىء بالنسبة للمتطفلين على فتيات مجموعتنا، فالفتيات أنفسهن كن يسارعن بفضح المحاولات التى يتعرضن لها ويحكين لنا عنها، كانت البنت منهن أحياناً تضحك وتهزأ بصاحب المحاولة، وأحياناً أخرى تكون فى حالة من الغضب والضيق إذا كان الشاب سمجاً أو سخيفاً، وفى الحالتين لم نكن ندعه ينجو بفعلته، لكنى استطعت أن أعرف اسمها بعد مناورات قمت بها من بعيد ودون أن يلحظ أحد.. فريدة، اسم أدهشنى لحد ما، قديم وغير منتشر فى جيلنا، كنت أتوقع أن يكون اسمها شيرين أو نرمين أو شاهيناز.. أو حتى هناء أو منال مثلاً!

***

بعد مضى ما يقرب من أسبوعين على رحلة الفيوم، رأيت فتاة الرحلة فى النادى تسير مع فتاة تشبهها إلى حد كبير خمنت أنها شقيقتها، اعتدت أنا وأصدقاء المدرسة، عماد وشريف وطارق أن نلتقى فى النادى يوم الخميس.

انشغالنا فى الكليات المختلفة التى تفرقنا فيها حال دون لقائنا خلال الأسبوع، وكنا خلال سنوات المدرسة لا نفترق، فاتفقنا على اللقاء مساء كل خميس فى النادى، نجلس لبعض الوقت ثم نكمل السهرة بعد ذلك بالذهاب إلى السينما أو المسرح ولا نرجع إلى بيوتنا قبل الثالثة صباحاً.

تابعتها بنظرى ويبدو أننى سرحت معها ولم أنتبه للحوار الذى كان يدور بيننا فى أحد الموضوعات السياسية كالعادة، كنا نقرأ الجرائد القومية وصحف المعارضة بشغف، وننهمك فى مناقشات طويلة وجدل لا ينتهى حول ما يُكتب فيها!

التفت أحدهم وقد لاحظ بسرعة بديهته اتجاه عينى، ونظر متسائلاً وابتسامته الماكرة تعلن عما فى نفسه، فقلت باستهانة.

– أبداً زميلتى فى الكلية.

– نِعمَ الزمالة يا ابنى.

– على إيه.. هناك بنات أجمل منها فى الدفعة!

– كمان.. إحنا حظنا أسود على كده، البنات فى كليتنا أرجل منى ومنك!

هاهاها هاهاها

لفت هذا الحوار نظر بقية الأصدقاء فتوقفوا عن الكلام والتفتوا ناحيتها، تأملوها للحظات، قبل أن تبتعد بخطواتها الهادئة وتغيب فى زحام النادى المكتظ بعشرات الفتيات، صمتوا لبعض الوقت.

– جميل وشيك..

– رائعة..

قلت متعجباً.

– ليس إلى هذا الحد..!

ثم أكملت موضحاً وجهة نظرى.

– جميلة لكن عادية..

كنت مخلصاً للنموذج الذى وضعته للجمال، لا أحيد عنه ولا أرضى بغيره بديلاً، مقاييس محددة وصفات تمثل فى عقلى فتاة أحلام أبحث عنها وأثق أنى سأجدها يوماً ما، لكنهم ضحكوا وانهالوا علىَّ بتعليقاتهم، أبدوا إعجابهم وأثنوا على جمالها الذى لم يسترعِ انتباهى حتى تلك اللحظة!

***

كنت أستغرب أننى لا أرى هذه الفتاة فى المواصلات أثناء ذهابى وعودتى من الكلية، صحيح أن مواعيدنا مختلفة، لكن هناك المحاضرات العامة فى الصباح لجميع أقسام الدفعة، لم أجدها على المحطة صباحاً أبداً، كما توقعت بعد رحلة الفيوم، فحتى لو كانت تركب من المحطة السابقة فلابد أن أصادفها فى الأتوبيس كما أصادف الآخرين من طلبة كليتنا، مرة أو مرتين فى الأسبوع على أقل تقدير.

فى أحد الأيام ونحن نتمشى فى ممرات الكلية أنا وعبد الله ومعنا بعض أصدقائنا، فى فترة الراحة بين المحاضرات وسكاشن العملى التى تبدأ فى فترة ما بعد الظهر، أقبلت فى مواجهتنا بصحبة صديقاتها، وكانت قد انضمت هى وصديقتها إلى مجموعة من الفتيات أصبحن شلة واحدة، يسرن معاً، فلا تكاد واحدة منهن تمشى بمفردها، مرت بجوارنا محاطة بسرب صديقاتها، فقال أحد أصدقائنا وهو يشير إليها.

– ما أرق هذه الفتاة، إنها تمشى كأنها فراشة تسبح فى الهواء.

كان هذا أصدق تشبيه يمكن أن يطلق عليها، حتى تلك اللحظة لم تكن علاقتى بها قد تعدت هذه التحية التى تبادلناها فى المحطة، كنت كغيرى من الشبان أفكر فى الفتيات وأسعد بصحبتهن لكن دون أن أشغل بالى كثيراً بأمرهن، كما كان يفعل العديد من زملائنا الذين دارت رؤوسهم سريعاً وربما منذ الأيام الأولى، فقد تميزت دفعتنا بعدد وافر من الجميلات وبشكل ملحوظ عن الدفعات الثلاث الأكبر وحتى عن الدفعات التى تلتنا، وهو الأمر الذى جعل قصص الحب تشتعل وتعبق أيامنا فى الكلية بأريجها وعطورها و.. مآسيها أيضاً!

***

لم تكن الدراسة والفتيات فقط هما ما يشغلان طلاب الجامعة الشبان، السياسة كان لها نصيب وافر رغماً عنا وعن قبضة الأمن القوية، وتحذير الآخرين لنا كطلبة جدد، هذه التحذيرات كانت تأتينا بشكل

غامض وتشاع بين الطلبة بطرق غير مباشرة لتعمل على تخويفنا من أى نشاط سياسى، حتى أهلنا فى البيوت وأقاربنا كانوا بين الحين والآخر ينصحوننا بالابتعاد عن السياسة فى الجامعة، خاصة المظاهرات وتنظيمها!

بطبيعة الحال كنا نتكلم فى هذا الأمر فيما بيننا باستهانة وبشىء من التحدى والسخرية، لم نكن نخشى شيئاً فى هذه السن! نرقب حركة الطلاب الأكبر سناً وخبرة وخاصة نشاطهم فى اتحاد الطلبة، ونحن نتلمس رائحة السياسة، ربما بحثاً عن مغامرة ما!

مرت الشهور الأولى بسلام وهدوء، ثم حدثت اضطرابات لعدة أيام فى الكلية تزعمها طلبة البكالوريوس والفرقة الثالثة لم تلبث أن أعقبتها مظاهرات خفيفة، مجرد تجمع لعدة مئات من الطلبة والطالبات رُفعت فيها لافتات ورقية مكتوبة بخط اليد، انتشر على أثرها عساكر الأمن المركزى فى جنبات الكلية، وكدروا صفاءها بزيهم الأسود الكئيب، لكن دون حدوث اشتباكات، كانوا على حذر وتعمدوا عدم الاحتكاك بالطلبة أو الاقتراب من تجمعهم فى الحديقة الرئيسية!

التجربة الجديدة علينا نحن القادمين حديثاً من المدارس حملت الكثير من الإثارة والتوجس، الموضوع فى نهاية الأمر ليس لعبة والأمن يتعامل معه بجدية شديدة، كان هذا واضحاً على وجوه الضباط

الغاضبة وهم يوجهون عساكرهم بغلظة وعصبية ليتخذوا مواقعهم فى أرجاء الكلية..

بالنسبة للفتيات كان مشهد العساكر، وهم ينتشرون فى صفوف منتظمة وبخطوات سريعة أقرب إلى الجرى، مرعباً وصادماً إلى حد كبير!

***

أسر إلىَّ أحمد سامى ونحن نخرج من بوابة الكلية فى طريقنا إلى البيت، إنه يريد الاشتراك فى أتوبيس الكلية، إلى حد ما بدت لى الفكرة مقبولة ومريحة وقد تنقذنا من زحام أتوبيسات هيئة النقل العام، أفظع وسيلة مواصلات فى تاريخ البشرية!

لكن مشكلة أتوبيس الكلية أن له ميعاداً ثابتاً فى الصباح الباكر، فلابد أن يصل إلى الكلية فى التاسعة إلا ربع قبل المحاضرة الأولى بوقت كاف، ويغادر الكلية فى الثانية والنصف ظهراً، وهو ما يعنى أنه مقيد المواعيد ولن ينفعنا فى الأيام التى نتأخر فيها بسكاشن العملى إلى الرابعة أو الخامسة مساءً، وكذلك عندما لا تكون المحاضرة الأولى فى جدول اليوم!

لكنى على كل حال وجدت أنه يكفى أن أرتاح من زحام المواصلات فى بعض مشاوير الذهاب والعودة، ليس شرطاً أن أستغل مبلغ الاشتراك الزهيد حتى الثمالة، وأستفيد من كل قرش دفعته فيه كما يفعل البخلاء!

سألت سامى الذى يسكن بالقرب من ميدان سانت فاتيما بعدى بمحطتين تقريباً، وكنا نتلازم عادة فى مشوار العودة، عن مسار الأتوبيس وكيفية الاشتراك به؟ فأخبرنى أنه يمر بميدان سفير حيث أسكن وينتظر هناك لبعض الوقت حيث أنها إحدى المحطات الرئيسية فى مساره.

بعد أن دفعنا الاشتراك واستخرجنا الكارنيهات، أخبرنى بشيء من الخجل وهو يكاد يهمس، أنه يود التعرف على فتاة تشترك فى أتوبيس الكلية، فقلت له وأنا أضحك.

– لقد قمت بخداعى إذن، ومن أجل فتاة!

لكننى بعد أن انتهيت من الضحك، لم أملك نفسى من التعجب لهذا الحياء الذى نزل فجأة عليه، فهو شخصية مرحة لا تكف عن الضحك وبرغم ضخامة حجمه يبدو كطفل، يتصرف على سجيته كأنه مازال فى المدرسة الابتدائية ودون اعتبار للعواقب، حتى أننا كنا نخشى ونحن فى المعمل حيث مواقد اللهب والكيماويات، أن يتسبب فى كارثة بتصرفاته الطفولية أثناء إجراء التجارب، لكنه فى النهاية إنسان نقى وطيب القلب إلى أبعد الحدود.

وجدت سامى مهنداماً متخلياً عن البنطلون الجينز مرتدياً أفخم ملابسه، أتى مبكراً جداً، برغم المشوار الطويل نسبياً من بيته إلى ميدان سفير، وصل قبل جميع الطلبة الذين يتجمعون فى الميدان لركوب أتوبيس الكلية، تقريباً لم يستطع النوم طوال الليل، قضى ليلته مسهداً يفكر فى لقائه الأول مع الفتاة التى أعجبته، والتى أراد التعرف عليها بهذه الطريقة الماكرة التى تبدو فى ظاهرها بريئة تماماً وطبيعية، ولا تحمل أى ذرة شك فى حقيقة نواياه.

وقفنا على الرصيف المطل على جانب من الميدان الهادئ فى الصباح الباكر، بجوار شجرة فيكس رفيعة العود مازال ندى الفجر يبلل أوراقها الغضة، شجرة صغيرة زُرعت فى هذا المكان منذ فترة وجيزة، على مقربة منا ثلاثة طلاب من زملائنا فى الدفعة، لم أكن أعرفهم.

كان سامى فى غاية التوتر ويحاول قدر طاقته أن يبدو جاداً، ويقف مترقباً ظهور فتاته وهو لا يتمالك نفسه، يتطلع حوله ويتنقل بعينيه بين الشوارع المطلة على الميدان منتظراً إطلالتها بقلق، مما دفعنى للابتسام وأنا أراه على هذه الحالة التى بدت فى نظرى مضحكة، فداعبته هامساً.

– إجمد وخليك راجل، بنت إيه اللى تعمل فيك كده!

ظهرت على وجهه ابتسامة مقتضبة، ثم لم يتمالك نفسه فانفجر ضاحكاً واستعاد بعضاً من طبيعته.

لم أستطع أن أمنع نفسى من التفكير، أى فتاة من فتيات الحى قد شغف بها وقام بهذه الحيلة ليتعرف عليها؟ كان هناك أربع أو خمس فتيات فى دفعتنا يسكن فى منطقتنا، كنت أترقب أنا أيضاً بدافع الفضول لأعرف من منهن التى فعلت هذا فى صديقى؟!

عندما أقبلت بخطواتها الهادئة، فوجئت.. كانت هى! فتاة الرحلة، إنها الفتاة التى يعنيها، استغربت، فنمط شخصيتها بعيد عن شخصية سامى إلى حد كبير، لكننى على كل حال لم أهتم، قلت فى سرى، لله فى خلقه شئون.

اتسعت عيناها دهشة وهى ترانا لأول مرة على الرصيف ضمن المنتظرين، لكنها سلمت علينا ثم وقفت على مقربة من الشبان الثلاثة، الذين كانوا يتحدثون، ولم تلبث أن انضمت إليهم وإن ظلت على تحفظها وحيائها.

كنت أشعر بشىء من الغربة عن هذه المجموعة المتآلفة، حتى سامى كان لديه سبب لوجوده معهم، فهو معجب بها ويريد التعرف عليها، فاستطاع بطريقته أن يزيل الحواجز بسرعة ليتكلم معهم ومعها، وبقيت أنا صامتاً أغلب الوقت، لأفسح له المجال عساه أن يحقق هدفه.

بعد عدة أيام بدأت أتعرف على الشبان الثلاثة، وأخذت أشاركهم الحديث الصباحى الذى يستمر بعد أن نركب الأتوبيس، ولم نلبث أن أصبحنا أصدقاء، بحكم التقائنا اليومى.

كنا نحن الستة من طلبة سنة أولى ولم يكن هناك أحد من طلاب الدفعات الأكبر يشاركنا فى محطتنا، ربما كان هذا سبباً أقوى لتعارفنا، الطلبة الأكبر سناً كانوا سيفرضون وجودهم وسيطرتهم بشكل أو بآخر على هذا الوقت الصباحى الذى كنا نتجمع فيه، ومن الطبيعى أنهم كانوا سيلتفتون إلى فتاة سنة أولى الجميلة التى تقف بيننا.

كنا خمسة شبان وهى الفتاة الوحيدة بيننا، فى البداية استكشفت طبيعة علاقتها بزملائنا الشبان الثلاثة، ربما كان هناك شىء من المشاعر بينها وبين أحدهم، ولهذا السبب يلتقيان صباحاً، لكنى تبينت دون عناء أن علاقتها بهم محايدة، مجرد زمالة ومعرفة تلقائية جاءت بسبب وجودها معهم على محطة أتوبيس الكلية لا أكثر.

فى البداية كنت أتعمد عدم الكلام معها مكتفياً بتحية الصباح، بالطبع ليس تجاهلاً لها، ولكن لأنى كنت أعتبر نفسى فى مهمة لمساعدة صديقى حتى يتعرف عليها، أتكلم مع أصدقائنا الثلاثة ومع سامى دون أن أفتح حواراً أو أسترسل فى الكلام معها لكن..

مع توالى الأيام أخذت أنتبه إلى حضورها الطاغى، وإلى تلك الجاذبية التى تشع منها، سامى لم ينجح فى جذب اهتمامها، لكنه كان سعيداً لمجرد تعرفه عليها، ولأنه أصبح يستطيع الكلام معها!

برغم تحفظى ومحاولاتى الساذجة لعدم الحديث معها، تفتح الكلام بيننا بتلقائية وسلاسة مع تكرار اللقاء، الذى كان يفرض علينا أن نتحدث جميعاً عن الأمور المألوفة التى يتحدث فيها طلبة الدفعة الواحدة فى أى كلية، المحاضرات وأساتذة المواد المختلفة والمعيدين وغيرها من الأمور التى تربط بيننا بحكم الدراسة المشتركة، وبمنتهى النعومة سرى تيار من الألفة بينها وبينى دونهم جميعاً.. لا أعرف كيف!

أبتهج لإطلالتها الصباحية وهى تقترب من بعيد بجسدها الرشيق وأناقتها لتشرق علينا نحن الخمسة، فنحتفى بها ونفسح لها مكاناً ويهدأ صخبنا الذكورى ونتحفظ فى كلامنا كما نفعل عادة عند وجود زميلاتنا الفتيات، كانت تأتى بخطواتها الهادئة لتقف بمنتهى التلقائية على مقربة منى وبشكل يبدو طبيعياً تماماً كأنها لا تتعمد ذلك، لاحظت ذلك مستغرباً وفرحاً فى آن واحد، أخذت أمارس معها تلك اللعبة الصباحية كأنها سر بينى وبينها.

سواء ذهبت إلى مكان الانتظار على رصيف الميدان قبلها أو بعدها، كنت أقف هنا أو هناك، فى وسط المجموعة أو على أحد طرفيها، وأترقب تلك المناورات الجسدية التى تبدو تلقائية لاواعية،

وتحدث بلا افتعال أو تعمد.. ظاهرياً طبعاً، لأجد نفسى فى نهاية الأمر أقف بجوارها!

الكلام يسرى كالأثير السحرى، لم يكن مجرد كلام لتمضية الوقت ونحن ننتظر وصول أتوبيس الكلية، كلام يأتى محملاً بأحاسيس ومشاعر، أكاد ألمسها، مهما كان نوع الموضوع الذى نتكلم فيه، والذى عادة ما يدور حول كليتنا، ما تلقيناه من محاضرات وما ذاكرناه من دروس، والمواد التى ندرسها ومدى صعوبتها أو سهولتها، وما سوف نتابعه من محاضرات وسكاشن فى يومنا.. وأحياناً كنا نتحدث عن برامج التليفزيون وما يُعرض فيه من أفلام وأغانٍ خاصة الأجنبية، وقد نتطرق إلى دور السينما والأفلام الحديثة المعروضة فيها والتى تلقى منا بطبيعة الحال اهتماماً خاصاً ومتابعة مستمرة!

ألحظ الاهتمام الذى تبديه عندما أتكلم، وحديثها العذب المنمق الذى أصبحت توجهه إلىَّ عندما تتكلم، ننهمك فجأة فى حوار مشترك، يبدأ وبيننا عدة خطوات، اقترب منها أو تقترب هى، أو نقترب معاً.. لأجد نفسى بعد لحظات.. بجوارها!

صوتها كان له وقع غريب ربما الأكثر تأثيراً فى نفسى من كل صفاتها الأخرى، صوت رخيم عذب نبراته تمتلك قوة آسرة تجعلنى أصغى إليها مفتوناً بكلامها منجذباً لها بكل وجدانى، رغماً عنى

أخذت أهتم بها، وأشعر بدبيب خفى يتحرك داخلى، أحاسيس تتسلل إلى الروح برفق ونعومة وتسكن مكاناً ما فى الأعماق.

إن اقترابى منها كان له أثر بالغ على نفسى، هناك شىء فى شخصيتها.. فى روحها يجذبنى، ليس جمالها ولا شكلها ولا أناقتها ولا كل ما له علاقة بالمظهر، إنما ما يكمن داخلها فى أعماق الروح، هى نفسها بكل لمحة فيها، صوتها وطريقة كلامها، رقتها البالغة، نظرة عينيها، هواء الصباح البارد وهو يتخلل خصلات شعرها فتميل رأسها برهافة لتتحاشاه.

كانت تأسرنى وتستحوذ على مشاعرى، وأنا فى دهشة يشوبها الفرح أرقب هذه المشاعر وهى تنمو نحوها تحديداً دون بقية الفتيات، أستغرب لها وأكاد لا أصدق أن فتاة مثلها مختلفة تماماً عن النموذج الذى رسمته لفتاة أحلامى تجعلنى أميل إليها، بل ولا أملك سوى الاستسلام أمام طغيان حضورها! لماذا هى من بين كل زميلاتنا وجميلات دفعتنا اللاتى كنت أتعرف عليهن باستمرار خلال حركتنا ونشاطنا اليومى فى الكلية؟!

كنت أضبط نفسى متلبساً بالتفكير فيها رغماً عنى وأنا أذاكر فى المساء، صورتها تخايلنى وتخطر ببالى فأراها على الصفحات، وأنام سعيداً وأنا أحلم بلقائها فى الصباح.

الحرج الذى كنت أشعر به بسبب سامى جعلنى أكتم مشاعرى، كنت فى موقف لا أحسد عليه، فهو يكلمنى عنها باستمرار، وأنا لا

أستطيع سوى الصمت وحبس الكلام فى صدرى حتى اختنقت وأنا أمنع نفسى عن الاسترسال معها، فضميرى لم يسمح لى أن أؤذى مشاعر صديقى أو أن أصدمه!!

4

ذهبت فى صباح أحد الأيام إلى مكان الانتظار فى الميدان بجوار شجرة الفيكس الصغيرة، ولم يكن هناك أحد من رفاقنا، لم أكد أصل حتى جاءت هى بعدى مباشرة، ألقت تحية الصباح وابتسامتها تتسع، وقبل أن نتكلم سألتنى مباشرة وهى تنظر فى عينى.

– إنت اسمك إيه؟

فوجئت.. ضايقنى هذا إلى حد ما، كنت أظنها تعرف اسمى، بل كنت متأكداً، كان سامى ينادى علىَّ ويردد اسمى عدة مرات وهو يتكلم معى أمامهم جميعا، وتلك عادته عندما يتحدث مع أى صديق له.

أجبتها وأنا فى دهشة من سؤالها أو من مكرها الأنثوى، كأنها تتعمد أن تعلن أنها غير مهتمة بى وأننى مجرد زميل لا يعنيها أمره.. سألتها بدورى عن اسمها، برغم أنى كنت أعرفه.. طبعاً، لكنى لن أكون أقل منها مكراً.

أبدت استغرابها وهى تقول.

– يعنى مش عارف؟!

قالتها بلهجة أقرب للدلال وعيناها تبتسمان قائلة أنا متأكدة أنك تعرفه! كدت أقول لها مازحاً، يعنى أنتِ نجمة الجماهير ولابد أن يعرفك الجميع!! لكن هذا النوع من المزاح لم يكن مناسباً فى لحظة كتلك، كنا قد اعتدنا بعد أن توطدت صداقتنا بفتيات شلتنا، أن نمزح معهن وندعابهن أو نغيظهن أحياناً بعبارات من هذا النوع، وكن يضحكن ويرددن الصاع صاعين، لكنى رأيت أنها جملة ثقيلة ومداعبة سمجة لا تليق فاستبعدتها فى الحال من خاطرى، وقلت لها بجدية.

– لم تخبرينى به من قبل.

نظرت إلىَّ وهى تميل برأسها ثم قالت مستسلمة.

– ياسمين.

ما أشد عذوبة اسمها وهى تنطق به، قلت معقباً وأنا أتأمل ملامحها الدقيقة الجميلة.

– اسم جميل.

– متشكرة.

كان هذا التعارف هو أول حديث خاص بينى وبينها، وبرغم أنه لم يستمر طويلاً لحضور بقية رفاقنا، لكنه كان بداية علاقتى بها، وإحساسى بوجود مشاعر ما بيننا، تتجاوز الإعجاب بين فتى وفتاة،

مشاعر خافتة ناعمة تشى باقتراب كل منا من الآخر، لكنى مع هذا كنت حريصاً ولا أتعجل الأمور!

فى داخل نفسى كنت أقاوم هذه المشاعر، فلم أكن أرغب فى الارتباط بفتاة واحدة فى هذا الوقت المبكر من حياتى وأمامى عشرات الفتيات، أتكلم معهن وأضحك وأتعرف على المزيد منهن بشكل مستمر، وهو الأمر الذى يجعل رأس أى فتى فى عمرى وقتها يدور! أن تقيد نفسك بفتاة واحدة كانت إلى حد ما فكرة منفرة ولا تتفق مع جموح الصبا ورغبته العارمة فى الحرية والانطلاق والتمتع بالحياة، كنت أترك للأيام أن تسير بنا إلى ما تهواه متمهلاً ناعم البال، فمازال أمامنا سنوات طويلة فى الكلية نقضيها معاً.. أو هكذا كنت أظن!

***

وجدت نفسى رغماً عن هذه الأفكار أحب الاستماع إلى أغانى أم كلثوم، لم أكن أطيقها ولا أتحمل سماعها فى مرحلة الطفولة القريبة، المشاعر الحية التى كنت أعيشها جعلتنى أرى فى أغانيها ما لم أره أو أحس به من قبل، أنسج أحلامى على موسيقاها وكلمات أغانيها، وأكتشف مع الأيام مدى جمال غنائها وثراء عالمها الفنى وقدرتها الرائعة على التعبير عما نحسه من مشاعر.

فلأول مرة كنت أتذوق طعم الحب، وأعرف كيف يمكن لفتاة أن تستحوذ عليك فلا تكف عن التفكير فيها، وتراها بعيون مغايرة،

جمالها يزداد فى نظرى مع الأيام، وأعرف لوناً من السعادة لم أعهده من قبل، وبقدر ما كانت مشاعرى تتأجج وأنا بعيد عنها، بقدر ما كنت متحفظاً وأنا معها وأخشى أن تعرف ما يدور فى نفسى.

أكتفى بالفرحة وأنا أكلمها أو وأنا أسمعها تتكلم، وأملأ عينى منها وأكتم سعادتى بها داخل نفسى، فرغماً عن أفكارى النابعة من صوت العقل الذى يحجم المشاعر ويصارع العاطفة ولا يدعها تنفلت، كان وجودها فى حياتى يُشعرنى بالسعادة ويملأ نفسى فرحة.

***

فوجئت بشاب يبدو أنه زميلها فى القسم، يقف معها هى وصديقاتها، من النظرة الأولى عرفت أنه يقصدها هى من بينهن، ضايقنى هذا ولكننى لم أعبأ به، فلم يبدُ عليها أنها تهتم به، كما أنه هو نفسه لم يكن به ما يغرى فتاة مثلها، فقد كان بسيط المظهر تبدو عليه رقة الحال، ويبدو أقرب إلى الشبان الريفيين الفقراء الذين عادةً ما يتجمعون معاً ولا يختلطون بغيرهم إلا فى أضيق الحدود، ولا يحبون أن يتكلموا مع الفتيات من نوعية ياسمين وصديقاتها على الإطلاق!

كان معنا فى السكشن عدد منهم، يسكنون فى المدينة الجامعية القريبة من الكلية، من خلال معرفتى بهم عبر الزمالة المفروضة علينا كنت أجدهم منطوين ومتحفظين فى تعاملهم مع زملائهم من شبان القاهرة، يرون أنهم صيع ومنحلين أخلاقياً، كما قالوا وهم يتكلمون معى عن الكثيرين من طلبة الكلية، ربما كان هذا نوعاً من

الدفاع النفسى عما يشعرون به من عجز، ليس فقط فى مواجهة زملائهم من شبان القاهرة، ولكن فى مواجهة القاهرة نفسها بطغيانها وضجيجها وزحامها، وفى مواجهة أهلها عموماً وطباعهم الشرسة وألسنتهم الحادة؟!

كنت قادراً على إزالة الحواجز معهم ومشاركتهم أكواب الشاى فى فترات الراحة أثناء سكاشن العملى، فهم لم يكونوا يدخلون كافتيريا الكلية ولا يحبون الجلوس فيها! إلا نادراً وفى أضيق الحدود!

أحمد نجيب كان أقربهم إلى نفسى، طيب وشهم لكنه متجهم ونادراً ما يضحك! أسرته من أعيان البلد حسب ما قاله لى، يمتلك والده ستة فدادين هى بقايا ميراث كبير كانت عائلته تمتلكه! أحد أعمامه هو عمدة القرية، تزوج جده كثيراً وأنجب تسعة أولاد وأربعة عشر بنتاً على مدار عمره الطويل.

– يا خبر أسود.. أنجب ثلاثة وعشرين ولداً وبنتاً؟!

– هذا غير الذين ماتوا وهم أطفال، ربما خمسة أو ستة آخرين، حسب كلام عماتى!

ظل يتزوج وينجب حتى وصل الثمانين من عمره، طبعاً بعد وفاته توزعت أرضه الشاسعة عليهم وتفتتت ملكيتها إلى مساحات صغيرة.

علقت قائلاً.

– جدك ده كان راجل جبار..

فرد بأسى يحمل فى طياته السخرية.

– جاب لنا الفقر الله يرحمه!

– ده جاب الفقر لمصر كلها.

هههههههههههههه..

تعرفت على نجيب فى أيامنا الأولى بالكلية، قبل أن أتعرف على أصدقاء شلتنا كلهم، لأن اسمه يأتى بعد اسمى مباشرة فى كشف الحضور والغياب بسكاشن العملى، ومن خلال صداقتى به تعرفت على مجموعة المدينة الجامعية، كانوا أصدقاءه..

وأنا أدردش معهم كنت أفاجأ بآرائهم المتحفظة وانتقادهم لسلوك زملاء السكشن، كانوا يولون عناية خاصة بأفراد شلتنا وينعتونهم بأقذع الصفات، ويختصون عبد الله وسامى تحديداً بأشد عبارات القدح، سامى بالنسبة لهم مجنون وغير طبيعى وعيل تافه، أما عبد الله فعابث وصايع بتاع بنات؟! والتحق بالكلية ليلعب ويهرج.

كنت أقهقه ضاحكاً وأنا أسمعهم يقولون هذا الكلام بلهجتهم الريفية الممطوطة، وأعتبره من قبيل الهزل الذى لا يستحق أن يُعامل بجدية، وأمازحهم ساخراً من آرائهم الحادة تلك، فيردون بجدية.

– أنت طبعاً لن تصدقنا، ولن يعجبك كلامنا!

– بالعكس.. ده عاجبنى جداً هههههههههه.

فيبتسمون بحرج وتبدو على وجوههم الحيرة ويعجزون عن الرد!

أما كلامهم عن الفتيات فكان مسيئاً وجارحاً لا يدعو للضحك، كان يزعجنى أن أسمعهم يقولون عن أى فتاة ترتدى بنطلوناً، إنها قليلة

الأدب وغير محترمة! صُدمت لهذا الرأى الجائر الذى يمس كل فتيات شلتنا تقريباً، وضايقنى بشكل خاص أنه يصم ياسمين بهذه التهمة الظالمة، كانت فى بعض الأحيان ترتدى فساتين أو جونلات طويلة، أما البنطلون فكان زيها الأساسى الذى ترتديه معظم الوقت، لديها مجموعة من البناطيل المتعددة الموديلات والألوان وكلها أنيقة ومحترمة المظهر.

كنت أجادلهم بحدة رافضاً رأيهم المستفز هذا، وندخل فى نقاش عبثى حول ملابس الفتيات وعلاقتها بالاحترام والأخلاق، لكنهم كانوا يتمسكون برأيهم ويصرون عليه بعناد، معلنين حرباً لا هوادة فيها على بناطيل الفتيات؟!

كنت أتعجب من هذه المعرفة غير المتكافئة بين هذا الشاب الريفى أو الذى يبدو كذلك، وبين ياسمين وصديقاتها، فقد كان هو الشاب الوحيد الذى يسمحن له بالسير معهن ويتحدثن معه دون غيره، ولم تكن علاقتى بها تطورت إلى أكثر من السلام المتبادل إذا التقينا فى الكلية، فأنا محاط دائماً بأصدقائى وصديقاتى من الشلة لا نكاد نفترق، وهى لا تسير إلا بصحبة صديقاتها، برغم أن لقاءنا صباح كل يوم كان يزيد علاقتى بها رسوخاً، لكننا كنا نفترق بمجرد نزولنا من أتوبيس الكلية، فيذهب كل منا إلى أصدقائه!

5

الدكتور أسامة رجل فى نهاية الأربعينيات تقريباً له لحية خفيفة، يشترك مع زميلين له فى تدريس إحدى المواد لنا، خرج من المعتقل منذ أسابيع بعد أن قضى عدة شهور هناك، كان الطلبة يتناقلون حكاية اعتقاله باستغراب وشىء من الإعجاب، والكثيرون منا يتعاطف معه ويعتبره مناضلاً سياسياً!!

وقف أمامنا فى أول محاضرة له بجسده الربعة المتين البنيان وبدلته القديمة التى يرتديها بلا رابطة عنق، انتظر حتى هدأت حركة الطلبة واستقر الجميع على مقاعدهم، ثم أشار ناحية اليمين قائلاً.

– لو سمحتم، الطلبة الشبان يجلسون هنا!

ثم أشار إلى الجانب الأيسر من المدرج، والطالبات يجلسن هنا! سكت بعدها ووقف ينظر إلى حركة الاضطراب التى سادت المدرج..

كانت شلتنا تجلس كلها فى الجانب الأيمن، أخذت الفتيات فى جمع كراساتهن وأقلامهن فى حرج ليغادرن أماكنهن، بينما ظللنا نحن على مقاعدنا نراقب حركة التنقلات بين جانبى المدرج فى دهشة!

أطاع جميع طلبة الدفعة الأمر فى صمت، لكن بعد انتهاء المحاضرة حدث نقاش داخل تجمعات الطلاب، سرعان ما تحول إلى جدل حول أحقية الدكتور أسامة فيما فعله، وإن كان فصل الطالبات

عن زملائهم الشبان داخل المدرج يخالف قانون الجامعة أم لا؟! البعض دافع عنه، وآخرون قالوا إنه مغال ومتشدد وأن المعتقل قد أثر على حالته النفسية! لعدة أيام حدثت حالة من البلبلة بين الطلبة أثارت تساؤلات عديدة، كان من الصعب على عقولنا الشابة إيجاد أجوبة لها..

– هل يعنى هذا أن بقية الدكاترة غير متدينين؟

– متدين أم متطرف؟

– لكنه رجل طيب جداً، ويتعامل مع الطلبة والطالبات بمنتهى الاحترام!

– على الرغم من أنه دكتور فى الكلية، لكنه لا يفهم معنى الزمالة فى الجامعة!

– الدكتور أسامة قام بالتصرف الصح، لابد أن يكون وضع المدرج هكذا فى بلادنا..

لكن كثيرات من طالبات الدفعة اعترضن واعتبرن هذا التصرف ماساً بكرامتهن، قالت إحدى صديقاتنا ونحن فى طريقنا إلى السكشن.

– مهما يكُن.. دكتور غلس ودمه ثقيل!

***

بشكل فجائى ورائع وجدت فى أحد الأيام، فريدة.. الفتاة الشقراء ذات البنطلون الجينز، تأتى لتجلس معنا فى الكافتيريا! كانت واحدة من فتيات شلتنا زميلتها فى المدرسة، وبينهما معرفة قديمة، ولسبب ما

جاءت بصحبتها هذه المرة، إلى حيث مكاننا الأثير الذى اعتدنا التجمع فيه، كنت أتمنى التعرف عليها منذ شهور، منذ أن رأيتها فى بداية العام الدراسى، ارتبكت وهى تسلم علينا، وذهبت كل محاولاتى للسيطرة على أعصابى سدى، وحتى لا يبدو أثر ذلك علىَّ لزمت الصمت، وأنا أفرك على الكرسى وأنظر إليها متأملاً متفحصاً.

كافتيريا كليتنا تُطل على الحديقة الطولية التى تخترق مساحة الكلية من أولها لآخرها، وتقع فى جزء من الدور الأرضى لأحد المبانى فى منتصف الكلية تماماً، واجهتها وجانباها من الزجاج مما يسمح للجالسين فيها أن يروا خارجها، لكن أجمل ما فيها هو الحديقة الجانبية لها، حيث توجد الكراسى والموائد على النجيل حول الأشجار وتحتها.

الحديقة الجانبية تلك، هى جلستنا المفضلة المعتادة والمكان الذى نتجمع فيه بعد المحاضرات، كنا نجلس فيها عندما أقبلت فريدة، بعد دقائق من مشاركتها لنا بدأت الانطباعات تتوالى، جريئة تعرف أنها جميلة وتتعامل مع الآخرين بثقة تصل لحد الغرور، صوتها حاد النبرات عالٍ وهى كثيرة الكلام، مندفعة وصاخبة وتحب أن تفرض نفسها على من يجلسون معها، تطوح شعرها الطويل الذى ينسدل على جبينها بهزة من رأسها وهى تتحدث لتزيد من تأثيرها عليهم، عيناها داكنتا الخضرة لامعتان كحبتى زمرد، ضيقتان قليلاً لكنهما جميلتان تبدوان كأنهما مكحلتان طبيعياً فهى لا تضع أى نوع من

المكياج على وجهها! شفتاها ممتلأتان بعض الشيء وهو ما يعطى فمها ووجهها جاذبية أخاذة.

كنت أعرف أن بعض المعيدين يغازلونها ويترددون إليها، وعرض أحدهم أن يتقدم لخطبتها، وهو شاب جاد ومتزمت وإلى حد ما ثقيل الظل، من هؤلاء الذين لا يعرفون من الدنيا إلا المذاكرة وحفظ الكتب والتفوق فى الامتحانات، لا يهتم بمظهره بالإضافة إلى أنه غير وسيم ويرتدى نظارة نظر غليظة "كعب كوباية" ويبدو أنه اعتقد أن وظيفته وتفوقه وحدهما يعوضان جوانب القصور الأخرى لديه!

بعد انتهاء السكشن العملى الذى يُدرسه لقسمها، طلب من الآنسة فريدة أن يكلمها على انفراد، وأخبرها مباشرة بلا مقدمات أنه يريد أن يزورهم فى البيت ليخطبها، يبدو أنه كان على ثقة عظيمة أنها ستوافق، بل وستفرح بعرضه، لكنها على عكس ما ظن تضايقت، وأخبرته بكبرياء أنها لا تفكر فى هذا الموضوع الآن.. نهائياً.

وبالطبع أخبرت أصدقائها وصديقاتها بمجرد أن تركته وهى مازالت فى حالة من الضيق لما طلبه منها، وبالطبع لم يمر يومان حتى كانت الدفعة كلها قد عرفت!

كنت أجلس ضمن دائرة من الأصدقاء تتوسطها فريدة، وأنا أرتدى كعادتى نظارتى الشمس الريبان السوداء، وأحتسى كوباً من الشاى وأنصت دون أن يبدو علىَّ الاهتمام لكلامها المتدفق، تقريباً لم أشترك فى الحوار الدائر بينها وبين أفراد الشلة، ولا تحمست لوجودها

كما فعل عبد الله الذى لم يكن يستقر على كرسيه وهو يحدثها ضاحكاً.

راقبت وأنا مندهش أحاسيسى تجاهها، هذه الفتاة التى أعجبتنى منذ اللحظة الأولى التى رأيتها فيها، ربما فى أول يوم لنا بالكلية، لم تكد تمر دقائق على جلوسها معنا حتى تراجع إعجابى بها، وخفتت مشاعرى ناحيتها، وزال تماماً ما شعرت به من ارتباك لحظة قدومها علينا!

مغرورة وغلسة، قلت لنفسى وأنا أنظر إليها دون أن تلحظ من خلف النظارة.

فى هذه اللحظة مرت ياسمين وهى تسير مع صديقاتها بالقرب منا، ما أرقها.. تمنيت لو أنها جلست فى الكافتيريا حتى أستطيع أن أملأ عينى منها أو أتمكن من الكلام معها بأى حجة، لكنها تجاوزتها ومضت فى طريقها، لم تكن هى وصديقاتها من روادها ولا تحب الجلوس فيها! مثلما نفعل نحن وأمثالنا من الطلبة، الذين استوطنوا الكافتيريا وحديقتها منذ بداية التحاقهم بالكلية.

***

كنا نترقب ظهور نتيجة الترم الأول كأننا ننتظر كارثة تحل بنا، فقد داهمت الامتحانات الجميع قبل أن يعرف معظمنا كيف يكتب محاضرة أصلاً فضلاً عن أن يذاكرها، كان من المعروف أن أغلب طلبة سنة أولى فى كليتنا، يرسبون فى أول عام دراسى خاصة فى

الترم الأول، عدد محدود كان يقضى فى كليتنا أربع سنوات فقط، الأغلبية يدرسون فيها لخمس أو ست سنوات!!

كان هناك عدد من طلبة سنة أولى يتصايحون عند لوحة النتائج، ويسألون بعضهم بصوت صارخ.

– ض يعنى إيه؟

– ض ج.. يعنى إيه؟

يرد أحد الطلاب الفلاسفة بثقة.

– يعنى ساقط يا فالح.

– يا نهار أسود.. ساقط، أقول إيه لأبويا فى البلد دلوقت؟!

– يخرب بيت دى كلية، وبيت أيامها السوداء..

نجيب كان يقف مذهولاً قرب لوحة النتيجة، يكاد يبكى، كان ملتزماً التزاماً صارماً بحضور المحاضرات والسكاشن، وكان بعد تكوين شلتنا واندماجى فيها كعضو مؤسس وأحد أعمدتها الرئيسية، يعيب علينا عدم الالتزام بالحضور، وينصحنى بجديه بالحرص على مستقبلى الذى سيتسبب هؤلاء العيال فى ضياعه!

تكونت شلتنا بشكل لا إرادى تقريباً، انجذبنا إلى بعضنا البعض من بين المائة طالب وطالبة الذين يتكون منهم القسم، لا ندرى كيف، وصنعنا هذه الشلة المترابطة التى اشتهرت على مستوى الدفعة كلها، وانضم إليها بعد ذلك عدد من طلاب وطالبات الأقسام الأخرى، ومنهم عادل الذى تعرفنا عليه فى المدرج أثناء المحاضرات، ثم

أصبح بمثابة عضو شرفى فى شلتنا ويأتى ليجلس معنا فى بعض الأحيان..

شاب مرح ضاحك به خفة ورعونة ويتعامل مع الحياة باستخفاف يصل إلى درجة الاستهتار! على قدر من الوسامة بشعره الأصفر وعينيه الخضراوين وجسده المائل إلى الطول والممتلئ نوعاً ما، يمتلك والده محلاً كبيراً لعصير القصب وعصائر الفاكهة فى أحد الشوارع الرئيسية بحى المطرية، وهو ما يجعله يتباهى بشكل قد يبدو استفزازياً بجيبه العامر بالمال دائماً، يتحدث معظم الوقت عن المحل الذى يعمل حتى ساعة متأخرة من الليل، والزبائن الذين يقفون بالطابور أمامه والمكاسب الهائلة التى يحققها يومياً! لا تخلو علبة سجائره من عدة سجائر محشوة بالحشيش، يرينا إياها متفاخراً ويعزم علينا منها بمكر..

ومن الأمور العجيبة التى يفتخر بها أن أباه كان يضربه بعصى خيزران ضرباً مبرحاً طوال فترة طفولته على أقل خطأ يرتكبه! ولم يتوقف عن ضربه إلا بعد أن وصل إلى الثانوى، يعنى لحد سنتين ثلاثة فقط هههههههههه! أنا أكلت ضرب يا جدعان لحد ما جتتى نحست هههههه! كنا ننظر إليه متعجبين وهو يتكلم عن هذا الأمر ويضحك كأنه ألقى نكتة! ثم يحول الموضوع إلى التفاخر بأبيه على طريقته، أبويا رجل جد وشديد لا يعرف الهزار!

لكن مشكلته الأساسية تكمن فى هوسه غير الطبيعى بالفتيات والنساء ومغامراته معهن! والتى كان يحكى لنا عنها وهو يضحك أيضاً.. بالنسبة لى كنت أتقبله كصديق على مضض! ولم أكن أشعر تجاهه بالود.

كان نجيب كثيراً ما يحذرنى من صداقتى مع هذه الشلة، ومن تغيبنا فى بعض الأحيان، عندما نزوغ من المحاضرات أو السكاشن مفضلين الجلوس فى حدائق الكلية أو الكافتيريا!

يقول لى بعصبية.

– عيال فاسدين وغير ملتزمين سوف يضيعون مستقبلك..

فأرد عليه ببساطة ضاحكاً.

– يا عم قلبك أبيض، خف هذا الكبت الذى تعيش فيه يا نجيب؟!

***

برغم الصدمة لم يبدُ الحزن على واحد منا، واجهنا النتيجة بالسخرية، كل مجموعتنا بالكامل لم ينجح منها أحد، رسبنا جميعاً بأكثر من مادتين وتحقق لنا إعادة السنة، عبد الله كان عبقرياً وحقق إنجازاً فريداً فى تاريخ الكلية، لم يرسب فقط فى الخمسة مواد، لكنه حصل على ض ج فيها كلها!! برغم أنه ليس غبياً على الإطلاق؟! أما المفاجأة التى توقفت أمامها متحسراً إلى حد ما فكانت فى زميلنا أشرف عاشق أغانى فيروز، نجح فى جميع المواد وحصل على جيد

فى ثلاثة منها! ليس هذا فقط بل وعلى جيد جداً فى مادة أخرى، لم يبد عليه هذا النبوغ ولا أنه سيكون الأول على القسم مطلقاً!!

بكت الفتيات فى البداية وتجمعن معاً ليتشاطرن العزاء.. ثم لم يلبثن أن لحقن بنا فى الكافتيريا ليشاركننا الضحك الهستيرى والسخرية اللاذعة، التى كانت تنطلق من ألسنتنا بلا توقف وبلا رحمة أيضاً، حيث أخذت كلمات السباب تتطاير من بين ضحكاتنا ولأول مرة أمام الفتيات دون أن نراعى وجودهن بيننا، لكنها كانت المرة الوحيدة التى حدث فيها هذا على طول عهدنا بالكلية!

لم أر ياسمين بعد النتيجة، عرفت بعد ذلك أنها انصرفت حزينة على الفور، وكنا قد حضرنا معاً فى الصباح كالعادة، كنت أود أن أعرف نتيجتها ولم أتمكن، فلم أكن أعرف اسمها كاملاً، ولكن بشكل أو بآخر كنت موقناً أنها لن تمر وستبقى معنا؟!

تركنا الفتيات فى حزنهن وخرجنا من الكلية دون أن نحضر المحاضرات أو دروس العملى، انطلقنا إلى وسط البلد وأخذنا نجوب الشوارع بلا هدف، اشترينا سندوتشات ثم جلسنا على مقهى، فكرنا فى دخول السينما ولم نفعل، فرغم الضحك والسخرية ومحاولتنا التظاهر بأن الأمر لا يعنينا، لم نستطع تجاهل الحزن الذى خيم علينا، فقد كانت المرة الأولى للرسوب لمعظمنا، بالنسبة لى كانت المرة الأولى والأخيرة، فلم أرسب بعدها فى أى مادة.

***

كان يوماً كئيباً فى حياتى وصادماً، كنت أعتقد أنى ذاكرت جيداً خلال الترم، ذاكرت على طريقة المدرسة، بالأسلوب الذى تعلمت به طوال حياتى، لكنى فوجئت أثناء الامتحانات بوجود أسئلة غريبة، لم تصادفنى أثناء الدراسة ولم أعرف لها إجابة؟! جاوبت على قدر استطاعتى، ولم أكن واثقاً، لكنى لم أتوقع هذا الرسوب الفاحش!

خفف عنى بعض الشىء هذه المشاركة الجماعية الحافلة من طلاب دفعتنا، لكن المرارة ظلت عالقة فى حلقى، دخلت البيت وأنا فى حالة خجل لم استطع معها الكلام، إعادة السنة الدراسية، أن تكون راسباً، تساوى أن تكون فاشلاً.. خائباً.. بليداً! شعور جارف بالإهانة اجتاحنى..

عندما حل الليل لم أطق البقاء فى البيت، خرجت لأتمشى فى الشوارع حتى أستطيع التدخين بحريتى، مشيت وأنا أشعر بالغضب من نفسى ومن الكلية والجامعة بأسرها، حتى هدنى التعب.

6

انقطعت عن الكلية ليومين، قضيتهما فى النادى من الصباح إلى المساء، ألعب اسكواش لبعض الوقت، لعبة عنيفة تحتاج لتركيز ومجهود بدنى كبير، وتساعد على تفريغ طاقة الغضب والإحباط، ألعبها منذ أن كنت فى الرابعة عشرة، بعد قضاء ساعتين فى الملعب

أستحم تحت الدوش الساخن لأغسل العرق ومجهود اللعب، ثم أخرج من المبنى المغلق الذى توجد به صالات الملاعب لأتمشى فى طرقات النادى وحدائقه.

تمنيت أن أقابل ياسمين، كنت أبحث عنها بعينى بين فتيات النادى، كنت أرغب بشدة فى الكلام معها، تخيلت أننا نجلس معاً فى المبنى الاجتماعى، هذا المكان الفخم الذى يحوى صالات البلياردو وقاعة السينما ومطعم النادى، ويوجد به عدة صالونات لتناول المشروبات وللقراءة، هذا المبنى كان أحد محرمات طفولتنا، لا يُسمح بدخوله للأطفال حتى سن الثامنة عشرة، كنا سعداء أنا وأصدقاء المدرسة عندما تجاوزنا هذه السن وأصبح بإمكاننا دخول المبنى والجلوس فيه..

بعد مرور اليومين استعدت نفسى واستوعبت صدمة الرسوب المروعة، وهدأ غضبى إلى حد كبير، ولم يكن هناك مفر من العودة للكلية.

كان الحال فى مجموعة ميدان سفير أفضل قليلاً، البعض رسب فى مادة واحدة أو مادتين على الأكثر، ومازال الأمل يراودهم فى النجاح إذا اجتازوا الترم الثانى بسلام، وهو الأمر الذى لم يحدث فقد لحقوا بنا جميعاً، كنت أنا وسامى أهدأ أعصاباً بحكم رسوبنا المؤكد، فأخذنا نشجعهم ونحاول طرد شبح القلق الذى يعصف بهم، ببعض الكلمات البلهاء التى لا تقدم ولا تؤخر.

لم تستطع أن تخفى جزعها عندما أخبرتهم بنتيجتى المؤسفة، فقالت وقد أخذتها المفاجأة.

– مش معقول.. إنت شاطر!

ظنت فى البداية أنى أمزح معهم، لكننى أكدت لها وأنا فى غاية الخجل رسوبى فى ثلاث مواد، فظهرت خيبة الأمل على وجهها وأخذت تواسينى وهى تقول، إنها سترسب هى الأخرى فالفرصة أمامها ضعيفة بعد أن رسبت فى مادتين، وهذا يعنى أنها لابد أن تنجح فى جميع مواد الترم الثانى، حتى تصعد للفرقة الثانية!

حاولت أن أشجعها وأنا أتمنى فى نفسى أن تبقى معنا ولو بمادة واحدة ترسبها فى الترم الثانى، وهو ما تحقق بالفعل بعد ذلك.

ما أظهرته من جزع واستنكار لرسوبى أمامهم جميعاً، كان إعلاناً عن مشاعرها وأنها بشكل أو بآخر تهتم بأمرى، مما جعلنى برغم حرج الموقف وحالتى النفسية السيئة أنتعش بعض الشىء، ساعدنى موقفها هذا ومشاعرها الرقيقة على تجاوز محنة الرسوب إلى حد كبير.

كنت أشعر بها تقترب منى، لكن تجارب بعض الزملاء مع الفتيات جعلتنى أتروى وأحكم زمام نفسى عن الاندفاع، أكثر من واحد ظن أن الفتاة التى يعجب بها تبادله نفس الشعور، ثم فوجئ برد الفعل المتعالى عندما صارحها بمشاعره، رد أقرب ما يكون إلى الاحتقار

يزدرى هذه المشاعر ولا يعبأ بها ولا بصاحبها، أن تنشق الأرض وتبتلعنى أفضل لى من التعرض لمثل هذا الموقف.

***

الأيام تمر والامتحانات تقترب، معلنة انتهاء العام الدراسى الأول لنا فى الجامعة، نتيجة الترم الأول تدفعنى إلى الاستذكار بجدية وبالأسلوب الصحيح هذه المرة، فلا أريد لتجربة الرسوب أن تتكرر ثانية، لا أحب الفشل ولا أرضاه لنفسى.

ألقاها فى الصباح فتشرق طلعتها على أيامى، تقبل علينا تسبقها ابتسامتها العذبة وهى تقف بجانبى أو فى مواجهتى، ليسرى بينى وبينها تيار من النظرات والكلام، تشرع فى الحديث فتتوقف عيناها عندما تلتقى بعينى ولا تغادرهما حتى تنتهى، أتكلم فتتابعنى منتبهة وهى تميل عنقها الطويل الناصع لتصغى ثم تسارع بالرد فى حماس كأن حديثى موجه إليها هى فقط من دونهم..

أستمع إليها وأنا أتأمل ملامحها وصفحة وجهها الصافى، طبقة الروج الوردى الخفيف على شفتيها، وملامحها الدقيقة المتناسقة إلى حد الكمال، عيناها المتألقتان ينبعث منهما دفء يغمر روحى فأسبح فى فضائها بنشوة، لكن الحرج ظل يلازمنى بسبب سامى، خاصة عندما يحاول أن يكلمها فترد عليه بجملة أو جملتين ثم وبمنتهى البساطة تدير رأسها الجميل ناحيتى وتكمل كلامها، دون أى اعتبار

لوجوده، وهى لا تعلم بطبيعة الحال أنه معجب بها وأنه ساقنى إليها لأكون سبباً فى انصرافها عنه.

كنا نصعد إلى الأتوبيس الذى يأتى إلى محطتنا شبه خال، فتختار أن تجلس فى المقعد الذى أمامنا أو الذى خلفنا وحدها، فواحدة من صديقاتها كانت تركب بعدنا بمحطة لتجلس بجانبها، ونظل نتحدث طوال الطريق إلى الكلية، وهى تتخلى عن تحفظها تدريجياً وتصبح أكثر مرحاً وانطلاقاً مع الأيام.

كنت أحياناً أمزح معها أو ألقى بتعليق ساخر فتضحك، كنت قادراً على إضحاكها دائماً وإدخال البهجة على حديثنا ونحن نتكلم معاً، ولا يعنى أن تستجيب الفتاة لمداعبتك فتضحك وهى تتكلم معك وتظهر ملامح السعادة على وجهها، إلا أنها تبادلك المشاعر وتفرح بوجودك معها، كنت أمنى نفسى وأترقب اللحظة التى سأعلن لها فيها عن مشاعرى..

أكتب اسمها على الورق وأنا أذاكر وأظل أكرره حتى تمتلئ السطور، ياسمين أحبك.. أحبك ياسمين، وأتأمل حروف اسمها الذى أرسمه فى بعض الأحيان دائرياً على شكل زهرة الياسمين العطرية الرقيقة..

أقلب مؤشر الراديو وأنا أذاكر بحثاً عن أغنية لأم كلثوم، عندما أجدها أخفض الصوت إلى درجة الهمس، وأستغرق فى القراءة والمراجعة على صوتها وموسيقاها..

هذا الشاب الثقيل يلازم مجموعة الفتيات التى تضمها باستمرار، وبرغم يقينى أن صحبته لها غير مؤثرة ولن تنال من علاقتى بها، كنت أستشيط غضباً من هذه الصحبة، فزمالته لها فى القسم تتيح له قضاء معظم الوقت معها، ولم يكن عندى شك أنه يتودد إليهن من أجلها هى، ولابد أنه يجلس بجانبها أثناء سكاشن العملى الطويلة التى يستمر بعضها لأربع ساعات، بينما لا أقضى أنا معها إلا دقائق الصباح المعدودة، ولا أستطيع خلالها أن أكلمها بحريتى من حصار الرفاق المحيطين بنا!

***

أصبحت فريدة تجلس معنا باستمرار، انسجمت مع أفراد شلتنا فى تلك الفترة من نهاية الترم الثانى، كانت تأتى من تلقاء نفسها لتبحث عنا فى مكاننا المفضل بحديقة الكافتيريا، تأتى بجمالها وصخبها وصوتها الحاد الذى لا يتوقف عن الثرثرة، ليس هذا فقط ولكن أيضاً بمشاكلها ومعجبيها ومطارديها الذين يحومون حولها كالذباب! لكننا على كل حال أنا وعبد الله وسامى وبقية أصدقاء الشلة وفرنا لها الحماية، ولم يعد باستطاعة أحد أن يضايقها أو يتحرش بها بعد أن انضمت إلينا..

كانت نتيجة الترم الأول قد كسرت غرورها إلى حد ما، وشاب مرحها حزنٌ كنا كلنا نعانيه!

7

امتحانات العملى تستمر لمدة أسبوعين طويلين، هذه المرة أجبت بشكل أفضل كثيراً عن الترم الأول، واستذكرت بكل طاقتى استعداداً لامتحانات النظرى، مواعيد جدول ياسمين تختلف عن مواعيدنا، كل قسم له أوقات محددة، لم أرها طوال أسبوعي الامتحان، لم تتوافق مواعيدنا فى الخمسة مواد، افتقدتها بشدة، حتى خرجت من البيت فى أول يوم امتحان نظرى بحنين جارف.. أكاد أرتعش من لهفتى إليها.

أنعشتنى رائحة أزهار البرتقال والموالح المنبعثة من الحدائق الصغيرة المحيطة بالمنازل فى شارعنا، وملأنى عبقها بالتفاؤل وأنا أسرع الخطى إليها، ومازالت هذه الرائحة العطرية الجميلة تذكرنى كلما شممتها فى هذا الوقت من العام، بتلك الأيام السعيدة من حياتى.

التقينا جميعاً على رصيف ميدان سفير سلمنا على بعضنا بحرارة، ووقفنا كالمعتاد بجوار شجرة الفيكس الصغيرة نتحدث حول الامتحان بسعادة، يشوبها هذا القلق اللذيذ الذى يصاحب امتحانات نهاية العام، كان يبدو عليها الشحوب وقد نقص وزنها بعض الشىء من مجهود المذاكرة والسهر، لم نتوقف عن الكلام حتى وصل الأتوبيس.

صعدت خلفى أنا وسامى وجلست على طرف المقعد المجاور لنا لتلتفت ناحيتى ويأخذنا الحديث حتى وصلنا الكلية، كنت أشعر بها

تنظر إلىَّ بحنو وعيناها الجميلتان تتأملان وجهى وحركة يدى وأنا أتكلم، وصوتها الهامس يسترسل من شفتيها بعذوبة، وسامى بجانبى يشاركنا الحديث دون أن يدرك ما يدور بيننا!

افترقنا كالعادة عند نزولنا فى الكلية، مشيت مع سامى إلى الكافتيريا حيث تجتمع شلتنا، وأنا أفكر فى الامتحان القادم وفيها، وكيف لى أن أكلمها على انفراد بعيداً عن رفاقنا وصديقاتها، وأخبرها بحقيقة مشاعرى فى الأيام القليلة الباقية وسط انشغالنا فى الامتحانات.

ما إن تسلمت ورقة الأسئلة حتى نسيت كل شىء سوى الامتحان، وشرعت فى الإجابة على الفور بحماس لأنتهى من الأسئلة قبل انقضاء نصف الوقت بقليل، أشعلت سيجارة وطلبت كوباً من الشاى وأخذت فى المراجعة متمهلاً.

كنت حديث العهد بالتدخين، بدأت فيه مع نهاية الترم الأول، ولأول مرة أدخل لجنة امتحان ومعى علبة سجائر، وأرى أن حرية التدخين وشرب الشاى والقهوة أثناء تأدية الامتحانات من أعظم الحريات التى تمنحها الجامعة لطلابها.

راجعت إجابتى مرتين واطمأننت لها وأنا مندهش من هذه السرعة التى انتهيت بها من الامتحان، ثم سلمت ورقة الإجابة وأسرعت نحو باب خيمة الامتحانات لأخرج وأنا أشعر برغبة مُلحة فى دخول الحمام، ولم أكد أتجاوز الباب الواسع حتى لمحتها تسرع خارجة هى الأخرى وتتجه مباشرة ناحيتى، فتوقفت لأنتظرها فى الساحة الكبيرة

الممتدة أمام الخيمة، وأنا أرقبها غير مصدق أنها انتهت من الامتحان بهذه السرعة، كانت تتقدم ناحيتى بخطوات يشوبها الارتباك، كأنها تعانى خجلاً ما، أو أن هناك صراعاً يدور فى نفسها بين الإقدام والإحجام، ربما تتوجس من رد فعلى ومعرفتنا لم تتوثق بعد، لكننى حسمت الأمر، تقدمت عدة خطوات لألقاها وأنا أنظر إليها مُبتسماً ومُرحباً.

الفرحة التى شملتنى لإقبالها كانت أكبر من أن توصف، تناسيت حاجتى لدخول الحمام، وهى تتوقف أمامى وملامحها الجميلة يغطيها العبوس، سألتها عن الامتحان فقالت وهى لا تخفى ضيقها.

– كان صعباً!

فقلت لها.

– لم أره كذلك، دعينا نراجع الإجابة معاً.

فتحت حقيبتها الجلدية الأنيقة، مدت يدها فى الحقيبة الصغيرة وقلبت فيها للحظات، لمحت رغماً عنى زجاجة عطر باريسية سوداء بغطاء ذهبى، ستبقى رائحة هذا العطر الجميلة فى ذاكرتى ولن أنساها أبداً، أخرجت ورقة الأسئلة ومضينا نراجع الامتحان ونحن نقف فى الساحة التى كانت خالية تقريباً من حولنا، فمعظم الطلبة كانوا ما يزالون داخل الخيمة.

أخذنا نتكلم بعد أن راجعت معها الامتحان، وبالفعل كان هناك أخطاء فى إجابتها، وأنا أحاول أن أصرف تفكيرى عن الحمام، فقد

كان من المستحيل أن أدعها فى أول فرصة تتاح لى للانفراد بها، وانطلقت هى فى الكلام دون توقف تحكى لى عن حياتها وعن نفسها فى تدفق رائع وأنا أستمع سعيداً بها وبحديثها.

تذكرت أن علبة السجائر فى جيبى وأسعدنى هذا، فقد كنت بحاجة إلى سيجارة لأخفف من توترى، فرغماً عنى كنت أشعر بشىء من الارتباك وأنا أقف معها لأول مرة داخل الكلية تحت أنظار زملائنا!

أخرجت سيجارة وأشعلتها، أطلت الدهشة من عينيها وهى تبتسم مستغربة، فلم تكن قد رأتنى أدخن من قبل، لكنها لم تعلق ولم تظهر ضيقها برائحة الدخان كما تفعل بعض فتيات شلتنا، ومضينا نكمل حديثنا، والطلبة يخرجون من الخيمة وتمتلئ بهم الساحة تدريجياً.

اقترب منا أحد رفاقنا من مجموعة ميدان سفير، رآنا وهو يخرج من باب الخيمة فانضم إلينا، لكنه سرعان ما شعر بأنه دخيل علينا، وكان هذا صحيحاً فقد توقفنا عن الحديث، أو بالأحرى توقفت هى وظلت صامتة بعد حضوره، فاستأذن بلباقة ومضى وتركنا.

مر ما يقرب من الساعة ونحن وقوف معاً، فكرت أثناءها أن أدعوها لنجلس فى الكافتيريا أو فى أى مكان، لكننى لم أفعل خشية إحراجها، منعنى الحياء قاتله الله، فلم تكن لترفض دعوة لا تعنى إلا أنها أصبحت بالنسبة لى أكثر من مجرد زميلة، دعوة تعلن عن إعجابى بها وأنى أكن لها مشاعر خاصة، ولها بعد ذلك أن تقبل أو ترفض، لكننى آثرت التريث خوفاً من إحجامها، أردت أن تنضج

علاقتنا على مهل، فتعاملت معها كأنها زميلة لا أكثر، ولم أظهر لها أى قدر من المشاعر التى ظننت أنى سأسكبها عليها عندما تحين الفرصة.

خرجت صديقاتها تباعاً وتجمعن على مقربة منا، وكذلك أخذت مجموعة أصدقائى تتجمع، ومازلنا أنا وهى معاً، ولم يبد عليها الرغبة فى تركى والذهاب إلى صديقاتها، ولما كنت قد وصلت إلى حالة ملحة لدخول الحمام لم أعد معها أطيق الوقوف، فصرت أبدل قدمىّ وأتساند على اليمنى تارة وعلى اليسرى تارة، وأدعك الأرض بهما معاً من شدة ضغط المثانة، فلم أجد بداً من الاستئذان منها، ولم أبتعد عنها بعدة خطوات حتى أسرعت فى المشى أكاد أجرى لو استطعت إلى الحمام الذى كان بعيداً فى الناحية الأخرى من الكلية، وأنا أطير من السعادة.

فى هذا اليوم عندما نزلنا من أتوبيس الكلية فى سفير، توقفت للحظة معها، كنت أود أن أوصلها حتى بيتها أو على الأقل عند مدخل شارعها، لكنى شعرت بالحرج يُطل من عينيها، فقد قرأت أفكارى وفهمت ما دار فى ذهنى، فتراجعت وسلمت عليها ومضيت..

8

لم يكن لقاؤنا بعد الامتحان الأول مصادفة كما تخيلت، فقد تكرر نفس الأمر بعد ذلك وبشكل جعلنى أتأكد أنها تتعمد ذلك، حتى أصبحت أنتظرها عقب كل امتحان عند باب الخيمة ولم تكن تتأخر بل تسارع بالخروج بعدى فأستقبلها مبتسماً ومتلهفاً إليها، كانت تفتح لى باباً من السعادة والحب بإقبالها على حياتى وسعيها للقائى بعد كل امتحان، لنقف معاً ونتحدث حديثاً لم يكن ينتهى.

نتكلم ونتكلم دون أن نشعر بالوقت ولا بأصدقائنا الذين يتجمعون حولنا ثم ينصرفون عنا إلى الكافتيريا أو إلى حيث يشاءون، ونحن نتمشى أمام الخيمة نذرع الساحة الواسعة بخطواتنا ولا نبالى بالشمس التى تصب أشعتها علينا.

حدثتنى عن أسرتها، شقيقتها التى تكبرها بعامين وتبدو كأنها توءمها لشدة تشابههما، وأبيها الذى يعمل مهندساً فى شركة بترول، ووالدتها خريجة كلية التجارة والموظفة فى إحدى الهيئات الحكومية.. والدها نشأ فى حى العباسية، لكنه انتقل إلى مصر الجديدة عندما تزوج منذ أكثر من عشرين عاماً.

– أنا أيضاً والدى انتقل للعيش فى القاهرة وسكن مصر الجديدة أيضاً، لكنه جاء من مكان أبعد!

سألتنى باهتمام.

– من أين جاء؟

– المنيا..

– أنتم صعايدة إذن!

– نعم.. ولا فخر هاهاهاها.

– هاهاهاها.

عندما سألتها، السؤال الشائع بين أبناء الدفعة الواحدة عندما تتوثق معرفتهم، عن تاريخ ميلادها، عرفت أنها أكبر منى بثلاثة أشهر إلا قليلاً، ضايقنى هذا بعض الشىء، بالطبع كنت أحب أن تكون أصغر منى، لكنى قلت لها ضاحكاً.

– ثلاثة شهور.. كثير جداً!

– لأ.. شهرين ونصف فقط.

– خلاص.. خليهم شهرين فقط علشان خاطرك.

ضحكنا ومضينا نتمشى ونكمل كلامنا، عينَّى لا تغادرانها، أكلمها وأنا أبصرها بقلبى، أحتويها وتحتوينى، أدقق فى معالمها، أستكشف عالمها، وأُبحر فى عينيها، أدور فى فلكها بسلاسة محلقاً فى سمائها، أبتسم فيشرق وجهها وهى تبادلنى الابتسام، نضحك معاً وفى نفس اللحظة إذا قلت أنا أو قالت هى ما يدفع للضحك..

انقطع الكلام بيننا فى إحدى المرات، فالتفت إليها وسألتها بغتة، فقط لنواصل الحديث.

– هل تحبين أم كلثوم؟

قطبت جبينها وقالت.

– لأ.. خالص، لا أطيق الاستماع إليها! لكن إنت شكلك كده بتحبها!

كدت أقول لها لقد أحببتها وأحببت أغانيها بسببك، لكنى ابتسمت وسألتها.

– لماذا؟

– لأنها مملة وأغانيها قديمة!

قلت مستسلماً.

– طيب..

***

كنت قد قررت أن أؤجل مصارحتها بمشاعرى إلى آخر يوم فى الامتحانات، وأعددت نفسى لهذا حيث لا مجال بعده لِلقاء فى الكلية وأمامنا الإجازة طويلة، كنت أريد أن أضعها أمام الأمر الواقع، حتى أستطيع أن أطلب منها أن نلتقى فى النادى، لتصبح علاقتى بها علاقة حب واضحة لكلينا، فلم نكن قد تعدينا خط الزمالة فى حديثنا وعلاقتنا داخل الكلية برغم الحميمية التى نتبادلها والمشاعر الدافئة التى تبوح لكنها لا تصرح، ولا حتى بالتلميح إلى ما يكنه كل منا للآخر!

كانت رقتها مع ابتسامتها العذبة واهتمامها بى تؤكد مشاعرها، وأنا أكاد أحملها من الأرض وأطير بها من شدة سعادتى بهذا الحب

الذى لم أتوقع حدوثه معها هى تحديداً، كنت أشعر بالزهو وأنا أتمشى وأتكلم معها! ولم لا وهى من أجمل بنات الدفعة والكلية بأسرها.

ابتعد سامى مفسحاً لى المجال، كان يأتى ليسلم علينا ويقف لدقائق ثم يتركنا، ولم يعد يحدثنى عنها كما كان يفعل قبل أن تبدأ الامتحانات، وقد شعر أن هناك شيئاً ما بيننا يختلف عن علاقتها مع الآخرين.

عبد الله كان عندما يلمحنا يأتى بمرحه وصخبه، يقف معنا لبعض الوقت يسب فيها الامتحان ويسخر من أسئلته الصعبة ويشرح لنا معاناته فى الإجابة وهو يضحك، ثم يلمح فجأة أحد أصدقائه أو صديقاته فينادى عليه أو عليها ويجرى مبتعداً..

***

فى داخل اللجنة كنت أستطيع أن أراها بوضوح برغم بُعد المسافة بيننا، أتابعها وهى تتسلم ورقة الأسئلة، وأطمئن إلى أنها بدأت فى الإجابة قبل أن أشرع بدورى فى الكتابة بتركيز أغيب فيه عن كل ما حولى، أرتاح لدقيقة أو دقيقتين بين كل سؤال وآخر، أرفع رأسى وأفرد ظهرى على المقعد وأغمض عينىَّ للحظات قبل أن أتطلع إلى الحركة داخل الخيمة، وأتابع زملائى وهم منهمكون فى الإجابة.

مر الدكتور أسامة بجانبى ضمن المراقبين على لجنتنا، نظر إلى الطالب الجالس أمامى وهو أحد أصدقاء شلتنا ثم توقف، كنت

أعرف أن صديقى قد كتب بقلم رصاص رفيع السن كل معادلات المادة على ظهر مسطرة بيضاء، وبين الحين والآخر يمسك بالمسطرة وينظر فيها كأنه يفكر ثم يعاود الإجابة، ويبدو أن الدكتور أسامة لمحه..

اقترب منه وأمسك بالمسطرة ونظر فيها، كان هذا يعنى بكل تأكيد محضر غش وإلغاء الامتحان ثم الرفت من الكلية لعامين.. ضياع مستقبل لا شك فيه، فمن يقضى سنتين فى الشارع يصعب عليه الانتظام مرة أخرى فى الدراسة!

سرت قشعريرة فى جسدى وأنا أتوقع أن يرفع الدكتور أسامة يده لينادى رئيس اللجنة، لكنه.. هز رأسه بعد أن تمعن فى المسطرة، ثم وبمنتهى الهدوء أعادها إلى مكانها وترك صديقى وقد انهارت أعصابه تماماً وتابع سيره بين الصفوف..

عندما خرجنا بعد الامتحان حكيت لها وأنا لا أتمالك نفسى من الضحك، أخذت تضحك بدورها وأنا أروى لها تفاصيل الموقف، ثم علقت قائلة وهى مازالت تضحك.

– صاحبك هذا مجنون!

– طبعاً مجنون ومتهور، لكن الدكتور أسامة أنقذه..

قالت بصوت خافت كأنها تلقى إلىَّ بسر.

– أغلب الظن أنه لم ير الكتابة أصلاً على المسطرة!

– كيف.. وهل هذا معقول؟

– ماما قالت لى إن الناس بعد سن الأربعين لا يستطيعون رؤية الأشياء الدقيقة، لأن نظرهم يضعف.

– شىء غريب، هل تعتقدين أن هذا ما حدث؟

– بل متأكدة! لو كان الدكتور أسامة رأى الكتابة لحرر محضر غش على الفور!!

– ربما.. الله أعلم.

***

فى الصباح عندما نلتقى على رصيف الميدان، أصبحنا نقف معاً صراحة دون مناورات خفية، وأدرك أصدقاؤنا وسامى أولهم الأمر، فكانوا يقفون بجانبنا على بعد خطوتين، تاركين لنا مساحة من الحرية، ولم يعودوا إلا فيما ندر يتدخلون فى الحديث بيننا.

كنت مازلت متحرجاً من دعوتها للجلوس فى الكافتيريا، من شدة حرصى على مشاعرها، من خوفى عليها من ألسنة طلبة الكلية، الجلوس مع فتاة ضمن مجموعة أصدقاء يختلف فى الأعين عن الجلوس مع فتاة بمفردها، برغم كل شىء كنت أخشى أن ترفض فتتسبب فى حدوث شرخ بعلاقتى بها، اكتفيت بوقفتنا معاً بعد الامتحان، وأنا أفكر فى اليوم الأخير..

انسابت الأيام ومرت ليقبل هذا اليوم، الذى رتبت نفسى له وأعددت الكلمات التى سأبوح بها لأعبر لها عما يجيش فى صدرى، تهيأت لبداية جديدة لحياتى معها ولحب سيبدأ ولن ينتهى أبداً..

أتت ترتدى فستاناً أبيض فى أزرق لم أرها ترتديه من قبل، بدت رائعة وفى قمة أناقتها، قابلتنى بابتسامة متألقة كأنها تشعر بما يدور فى نفسى، وقفنا فى الصباح ننتظر الأتوبيس ونحن نحلق فى جو من السعادة ونضحك من قلوبنا كأننا ذاهبون إلى رحلة لا إلى امتحان، كان الإحساس بالإجازة قد شملنا جميعاً بعد أن أرهقتنا الامتحانات، لكننا ما أن جلسنا على مقاعدنا فى الأتوبيس حتى أخرجنا الأوراق وأخذنا نراجع أنا وهى وسامى، ونتأكد أن المعلومات التى سهرنا نحفظها لم تتبخر من ذاكرتنا.

قفزت من الأتوبيس بمجرد وصولنا الكلية وخلفى سامى كأننى أدعو الزمن ليطير بى إلى لحظة لقائها بعد الامتحان، تركتها وعقلى معها لتنزل على مهل مع صديقاتها كعادتها، وأسرعت إلى الكافتيريا حيث اعتادت مجموعتنا أن تلتقى صباح كل امتحان.

دخلت مثيراً زوبعة من المرح وأنا أمزح وأضحك مع الجميع، كأنى أوزع الفرحة على كل من أقابله، طلبت قهوة وجلست فى مواجهة الباب وأمامى زجاج الواجهة العريض الذى يطل على الحديقة الطولية الكبيرة، التى تمتد من أول الكلية إلى آخرها، وتزينها أشجار النخيل الملكى السامقة على الجانبين.

فى صباح الامتحان الثالث لكزنى عبد الله فيما بيننا مداعباً، كان قد رآنا ونحن ننزل من أتوبيس الكلية معاً، همس لى وهو يبتسم بمكر!

– آه يا نمس..

– يا شيخ اتلهى.. هو ده وقته على الصبح!

– أحلى وأرق بنت فى الدفعة، يا بختك.

– ربنا يستر من عينيك وقرك..

– أنا لا أعرف كيف جعلتها تحبك بهذا الشكل؟

أجبته ضاحكاً، وقد جذب كلامه انتباهى.

– أنا لم أفعل شيئاً! لكن لماذا تقول هذا؟ نحن مجرد زملاء لا أكثر..

غمز لى بعينه ثم أخذ يتحدث عن ملاحظته لوقفتنا معاً بعد الامتحانات، وتفسيره لسلوكها ناحيتى، وكيف أنها تترك الجميع من أجلى! وهذا يعنى حسب خبرته العظيمة مع البنات والتى تصل إلى أربعة أشهر أنها..

كعادته استرسل فى الكلام والثرثرة ناسياً المراجعة والامتحان الوشيك، كان يبدأ الحوار مع أى أحد من الأصدقاء أو الصديقات فى حديث جانبى، ويخرج من موضوع إلى موضوع حتى يضيع وقت المراجعة الصباحية عليه وعلى من يحدثه!

***

لم أكن قد رشفت من فنجان القهوة سوى رشفة واحدة، والجميع حولى منهمكون فى المراجعة الأخيرة لمادة الامتحان، ويستعيدون النقاط المهمة أو التى يعتقدون أنها مهمة، وأنا أتابعهم بعقل سارح فى

ملكوت العشق، موزع التفكير بينها وبين الامتحان، عندما مرت أمامى..

رأيتها عبر الزجاج تسير على الممشى المجاور للحديقة، لم تكن وحدها، ولا برفقة صديقاتها كما هى عادتها دائماً، لأول مرة لا أراها بصحبتهن، كانت تمشى معه، هذا الشاب البائس الذى كنت قد نسيته حتى ظهر اليوم، وبمفردهما، لوحدها معه، وفى هذا اليوم بالذات، لأول مرة معه هو.. يا للجحيم، وبمفردهما..

شعرت بالدم يصعد حاراً إلى رأسى، وصدرى يتأجج بنار الغضب، كيف تسمح له، كيف..؟! إنها قوية الشخصية، أعرف هذا تماماً، ولا يستطيع هذا السمج ابن الحوارى أن يجبرها على مصاحبته، فلماذا.. لماذا الآن وفى هذه اللحظة، وأين صديقاتها اللعينات، إلى أى داهية ذهبن؟ دققت النظر إليها.. إليهما معاً، إنه يتكلم وهى صامتة بجواره، لا تنظر إليه ولا تكلمه، لكنها بجواره هو ولوحدهما معاً، إن هذا الجوار لى أنا وحدى، لا أحب أن يشاركنى فيه أحد، لا أحب ولا أطيق.. لن أعذرها، لا أستطيع أن أتسامح ولا أقدر أبداً.. أبداً.

لقد انتزعتنى من أحلامى ومن عالمى وجذبتنى إليها حتى استولت علىَّ تماماً، ولم يعد فى هذا العالم أحد سواها، لم أعد أر فتاة غيرها، حرمت على نفسى مجرد التفكير فى غيرها من الفتيات، ولم أعد اسمح لنفسى أن أمشى مع واحدة بمفردنا حتى فتيات شلتنا، إلى هذا الحد أخلصت لها منذ أن تأكدت من مشاعرى نحوها.

هبطت من علياء الفرح إلى سفح الجحيم بغتة، انطفأت كل معالم المرح وماتت الضحكة فى قلبى، واستولى علىَّ الغيظ حتى أعمانى الغضب، فجرف كل مشاعرى لها فى لحظة، أنزلتها من البرج العالى الذى وضعتها فيه، وألقيت بها إلى الهاوية.

إننا لم نكد نبدأ، فلننته الآن مع نهاية العام الذى عرفتها فيه، إنه الميعاد المناسب للفراق، انتهت قصتى معها فى اليوم الذى كانت ستبدأ فيه!

لن أعرفها بعد اليوم، بل سأعتبر أننى لم أعرفها من قبل فى أى يوم من الأيام، إن مشاعرى نحوها كانت سراباً!

سأتجاهلها كما أفعل مع أى فتاة تحاول أن تلفت نظرى أو تجذب انتباهى إليها، أكثر من واحدة حاولت، لكنها الوحيدة التى نجحت وكنت سعيداً بها، أما الآن فلا، إنها مثل غيرها لن تلقى سوى التجاهل والإعراض..

هكذا اندفعت الأفكار السوداء تعصف بى وتحطم كل شىء وبسرعة جنونية، ولا تبقى ولا تدع إلا الخراب، كنت مبالغاً بالطبع وعلى درجة كبيرة من الحمق والغرور والاندفاع، لكن هذا ما حدث، أما ما فعلته بعد ذلك فهو الجريمة الكبرى التى لم أسامح نفسى عليها أبداً، والتى دفعت ثمنها غالياً؟!

فقد قمت إلى الامتحان وأنا فى حالة يرثى لها من الإحباط والغم والمكابرة دون أن أرحم نفسى أو ألتمس لها عذراً، ولم أستطع أن

ألملم شتات نفسى إلا بصعوبة لأُجيب على الأسئلة وأنا غائب الذهن، والمعلومات التى حفظتها عن ظهر قلب تضيع منى وأنا أحاول التركيز عبثاً والإجابة تراوغنى، حتى بدأت الخيمة تخلو من حولى وأنا جالس أجاهد لأنتهى من الامتحان قبل انتهاء الوقت، ولأول مرة منذ بدء الامتحانات أستغرق الوقت بكامله، وأسلم ورقة الإجابة فى اللحظة الأخيرة.

9

خرجت من الخيمة دون أن ألتفت أو أنتظر كما كنت أفعل، رأيت مجموعتنا مكتملة ومعهم فريدة، الجميع خرجوا قبلى ويقفون على مقربة يملأ ضحكهم وصياحهم المكان، فاتجهت إليهم من فورى، ولم أكد أصل إليهم حتى وجدتها تقترب..

يبدو أنها كانت تقف على مبعدة ترقبهم أو ربما انتظرتنى كعادتها حتى انتهيت من الامتحان وخرجت خلفى، لم أعرف ولم أهتم ساعتها أن أعرف، كان الغضب ما زال يعمى بصيرتى، وقرار التجاهل الأحمق الذى اتخذته قبل الامتحان مسيطراً علىَّ.

لمحتها وهى تقترب وتقف على بعد خطوتين منى فلم ألتفت إليها، رحب بها عبد الله وسلم عليها وهو يلكزنى لينبهنى إلى وجودها، لكننى ظللت صامتاً كالصنم وهى تقف بجوارنا يمنعها الخجل من

مشاركتنا، فلم تكن تعرف أحداً من مجموعتنا سوى معرفتها العابرة بعبد الله، حتى سامى لم يكن موجوداً معنا لسوء الحظ، فربما كان حديثه معها يفتح المجال أمامى، لأكلمها أو لتكلمنى هى فأضطر للرد عليها، حتى ولو بغضب أو بعتاب أو بأى شىء غير هذا الصمت الذى واجهتها به، لعل وجوده كان يعطيها المبرر على الأقل ويرفع عنها هذا الحرج الذى شعرت به يسيطر عليها وهى تقف بجانبنا، وتنظر إلىَّ وعلى شفتيها تلك الابتسامة الخجلى كأنها تنتظرنى.

فقد كنت أتكلم وأضحك خاصة مع الفتيات، متعمداً أن أغيظها، وأتحاشى النظر إليها كأنها غير موجودة، أو كأننى لم أرها من الأصل، لكنها لم تستسلم واشتركت فى الكلام مع إحدى الفتيات حول امتحان اليوم والأسئلة التى تضمنها كأنها تدعونى لأكلمها عن الامتحان، فقد كان هذا هو بداية حديثنا المعتاد فى الأيام السابقة، نبدأ بمراجعة الامتحان ثم يمتد بنا الحديث إلى شتى الموضوعات بعد ذلك، لكننى وقفت كالحجر الأصم مصراً على تجاهلها وإهانتها إلى هذا الحد كأنها لا شىء..

فى ومضة خاطفة التقت أعيننا، التساؤل والحيرة أطلا من عينيها الجميلتين وهى تمد عنقها الرشيق ناحيتى فى ترقب، لكننى أشحت بوجهى عنها كأنى لا أعرفها، كأننا لم نكن منذ ثلاث ساعات فقط نتكلم ونضحك معاً!!

أطرقت برأسها نحو الأرض ومضت، غادرتنا بهدوء وهى غارقة فى الصمت، وأنا أتتبعها فى تحد مكابر عنيد، وقسوة لم أعرفها فى نفسى من قبل!

يومها لم أركب أتوبيس الكلية، بل تعمدت الابتعاد عن المكان الذى يقف فيه حتى لا أراها ولو من بعيد، غادرت الكلية على الفور ورجعت بالمواصلات حزيناً وأنا أتصور أنى سأنساها ولن أفكر فيها بعد اليوم، وأننى سأخرج من حبها كما دخلت بسلاسة وبلا هموم، لكنى كنت واهماً.

فلم يمر وقت طويل حتى أخذ الندم يعصف بى، ويحيل أيامى إلى قلق وأرق، وأخذت ألعن تهورى وسلوكى الطائش الأحمق الذى لم يكن له سبب سوى الغيرة العمياء والعصبية اللعينة التى تصيب العقل بالشلل فيعجز عن التصرف السليم، لم يكن هناك مبرر حقيقي لما فعلت، وهى لم ترتكب جرماً يستوجب هذه الإهانة التى ألحقتها بها!

إنها بنت ناس وفتاة مهذبة رقيقة، أخذت أستعيد ملامحها وهى تمشى بجوار زميلها هذا، لأتبين على البعد أنها كانت أقرب إلى الوجوم والغضب كأنه شىء مقرف يمشى إلى جانبها، بل إنها كانت تسرع فى مشيتها على غير عادتها كأنها تود التخلص منه، كيف لم ألحظ هذا ساعتها، أو أننى لاحظته وتجاهلته متعمداً حتى لا ألتمس لها العذر!

إن الدقائق التى وقفتها معنا دون أن ألتفت إليها هى أسوأ أوقات حياتى، هذه اللحظات ستظل لعنة تطاردنى إلى آخر العمر لا أتذكرها إلا بكل ألم وندم..

بعد عدة أيام أخذت أستعيد نفسى ويهزنى الحنين إليها، وبدلاً من أن أنساها أصبحت أفكر فيها بجنون حتى كدت أفقد صوابى، أردت أن أراها وأتحدث إليها وأستعيدها بأى ثمن، لم أتصور أن حياتى من الممكن أن تمضى بدونها.

***

سافرت إلى المنيا مع أسرتى، كعادتنا فى الإجازات الصيفية، نقضى ما يقرب من الأسبوعين هناك، سرحت وأنا فى القطار، وأخذت أنظر إلى الحقول والقرى الصغيرة وهى تمر أمامى شارداً فى أفكارى الخاصة، لا أستطيع التخلص من الشعور بالغيظ من نفسى ومما فعلته.

لدى أبى شقة خاصة بجوار شقق أعمامى فى عمارة كبيرة يمتلكها جدى وتطل على النيل، شقتنا تقع فى الدور الرابع وشرفتها الواسعة ترى النهر العظيم فى أحد أروع تجلياته، لونه أزرق صافٍ عريض شاسع المساحة كأنه البحر، أجمل من نيل القاهرة، لكن..

برغم أن المنيا، المدينة التى عاشت فيها نفرتيتى جميلة جميلات التاريخ الفرعونى، بلد سياحية وحولها الكثير من المواقع الأثرية والمزارات وتعج بالنشاط النهارى، لكنها مقارنة بالقاهرة تعتبر هادئة

إلى حد الملل خاصة فى الليل، ليس لدىَّ ما أفعله سوى أن أجلس فى الشرفة بالساعات أقرأ الجرائد والمجلات وأستمع إلى الراديو، أو أتمشى فى المدينة وعلى النيل مع بعض أقاربنا الشبان وكلهم ينتمون إلى الفرع الفقير فى العائلة! عادة ما تنتهى جولتنا بالجلوس على مقهى يُطل على الميدان الرئيسى، أندهش وأنا أسمعهم يتكلمون عن القاهرة كأنها مدينة الأحلام العامرة بمتع الدنيا والرزق الوفير، وعن رغبتهم فى زيارتها أو بالأحرى الانتقال للعيش فيها! جعلنى هذا أشعر بشيء من الزهو لكننى فى الوقت نفسه حاولت أن أوضح لهم أن تصورهم هذا مبالغ فيه، فلم يبد على وجوههم الاقتناع! الحلم الذى يداعب خيالهم كان أكبر من أن يؤثر فيه كلام يُقال فى جلسة مقهى!

أحياناً أخرى أتمشى بمفردى متأملاً صفحة النيل الهادرة والنخيل الذى يقف راسخاً على شاطئيه، ووجه نفرتيتى الجميلة يطالعنى فى كل مكان أثناء تجوالى فى المدينة، كأنها تصاحبنى..

إيقاع الحياة اختلف اختلافاً كبيراً عما عهدته فى طفولتى، عندما كان أعمامى الثلاثة وأسرهم يقيمون فى العمارة، وكانت الحركة بين الشقق لا تهدأ معظم ساعات النهار، ولعبنا أنا وإخوتى مع أبناء وبنات أعمامنا على السلم وأمام المدخل الواسع لا يتوقف طوال اليوم، معظم أقاربنا نزحوا إلى القاهرة أو الإسكندرية بسبب وظائفهم

الحكومية أو أعمالهم ومشروعاتهم التجارية، ولم يبق فى البلد سوى عدد محدود معظمهم من كبار السن!

فى هذه الإجازة افتقدت حياتى فى القاهرة إلى حد كبير، لأول مرة لا أستطيع الاستمتاع بأيامى هنا، هل لها دخل فى هذا الشعور؟ ربما.. لا أستطيع التأكد! أفتقد النادى والسهر فى المسارح ودور السينما وأصدقائى وصخب ليل القاهرة.. وأفتقدها!

***

بعد عودتى من المنيا هاجت ذكراها فى نفسى ورغبت بشدة فى رؤيتها، كانت الفرصة الوحيدة أمامى خلال الإجازة هى النادى، فأخذت أذهب إليه مع أصدقائى أحياناً، وبمفردى غالباً وأظل بالساعات أتمشى بين جنباته وأذرعه طولاً وعرضاً عسى أن أراها وأنا على يقين أننى سأستطيع أن أسترضيها.

كنت على استعداد أن أعتذر لها وأن أقبل يديها لترضى وتصفح، أتفحص الفتيات وأدقق النظر إلى تجمعاتهن وما أكثرها فى النادى، متمنياً أن ألمحها برقتها وعذوبتها ومشيتها الحالمة الرشيقة.

أخذت الأيام تمر ولم أفقد الأمل، أذهب بالنهار أحياناً وفى المساء أحياناً أخرى، أمضى الوقت فى ملاعب الإسكواش أو حمام السباحة مع أصدقاء النادى والمدرسة، كانوا يستمتعون بإجازة الصيف كعادتهم، وأنا مهموم بمشكلتى وما جلبته لنفسى من نكد، أفكر فى ذلك الموقف وتلك اللحظة القدرية.

لو أنى جلست يومها وظهرى لباب الكافتيريا، أو كان الكرسى الذى تصادف ووجدته خالياً يميل نحو الداخل، أو أن الطاولة التى جلس عليها أصدقائى كانت فى عمق الكافتيريا بعيداً عن الواجهة، لو أنى كنت أنظر لحظتها فى الكتاب ولم ألمحها، لو حدث أى شىء جنبنى لحظة التعاسة الممتدة التى أكتوى بها، هل كنا نجلس الآن معاً هنا فى النادى؟

كنت أقابل فى بعض الأحيان أحد أصدقائنا من مجموعة سفير، وأنا أتمشى فى أى مكان بالنادى ألتقى بواحد منهم فى منطقة الملاعب أو عند حمام السباحة، كانوا ثلاثتهم أعضاء فى النادى، فأفرح به وتغمرنى السعادة، كانوا يذكروننى بها..

***

وفى يوم كنت أجلس مع أصدقاء المدرسة، وأنا أتحدث معهم وأترقبها عساها تمر أمامنا كما حدث من قبل، حين أخذنا الكلام إلى شرم الشيخ، وكنا نسمع عنها من بعض الذين زاروها من قبل، وعن مدى روعتها وجمال بحرها وطبيعتها وجبالها، كان قد مضى على استعادتها أعوام قليلة، بسرعة جرفنا الحماس وقررنا القيام برحلة إليها.

وجدت أنها فرصة مناسبة لى لأخرج بعض الشىء من حالة الإحباط التى أعيشها بسبب افتقادى لها.

بعد أيام كنا نستقل الأتوبيس متجهين إلى شرم الشيخ، وصلنا فى الصباح الباكر والشمس مازالت ترسل أشعتها الحانية على الجبال الملونة والبحر، الذى امتد أمامنا كأروع ما يكون بشاطئه البكر وقد نصبت الخيام الملونة على رماله كمعسكرات متتابعة، من اللحظات الأولى اكتشفنا أن الأوروبيين يمثلون الأغلبية الساحقة، فلم نكد نتسلم خيمتنا ونضع أمتعتنا حتى بدأت جموعهم تنتشر على الشاطئ بملابس البحر!

لم أكن اعرف أن المايوهات البكينى قد تطورت إلى هذا الحد المذهل! الذى رأيته على أجساد الفتيات الأوروبيات، اللاتى كن على كل شكل ولون، كل ما حولنا كان يعطينا الانطباع بأننا فى أحد الشواطئ الأوروبية، أو أننا ذهبنا إلى بلد آخر، كان كل شىء مختلفاً عما تعودناه، الطبيعة والبحر وحتى الناس، وقد وقعنا جميعاً أسرى لهذا الجمال والسحر الذى يشع من كل شىء فى شرم الشيخ.

قضينا أسبوعاً حافلاً نستمتع ونمرح فى سعادة، أجلس أنا وشريف على الشاطئ نتأمل جمال البحر، أو نتمشى هنا وهناك، ثم نسبح لبعض الوقت دون أن نتوغل فى الماء الممتد حتى نهاية الأفق! تعلمت السباحة فى النادى وأجيد العوم فى حمامات السباحة، أما البحر فأستمتع بمياهه وهى تغمرنى بالقرب من شاطئه دون السباحة فيه، لم أتعود على الأمواج وهى تدفع الجسد وتعلو وتهبط به،

تعودت على المياه الهادئة الساكنة فى النادى! الخوض فى البحر يبدو فى نظرى مخيفاً..

أما عماد وطارق فقد انطلقا يسبحان فى البحر، ويمرحان على شاطئه بين الشبان والشابات الذين قدموا من معظم البلاد الأوروبية، دون أن يهدآ لحظة خلال النهار، ولا يكفا عن التحديق فى الفتيات وأجسادهن الفاتنة!

كنا نستمتع بمشاهدة الأسماك الصغيرة الملونة وهى تسبح على بعد أمتار قليلة من الشاطئ، بواسطة نظارات البحر، فى المرة الأولى كنت أقف والماء يصل إلى ما فوق المايوه بقليل، وعماد على مقربة منى يغطس رأسه فى المياه الصافية وهو يرتدى النظارة، ضحكت ساخراً منه عندما رفع رأسه، وقلت له.

– ما الذى يعجبك فى رمال القاع حتى تنظر فيها هكذا؟

فأعطانى النظارة قائلاً.

– انظر بنفسك.

فأخذتها منه بدافع الفضول، وعندما وضعت رأسى فى الماء، فوجئت ولم أصدق عينى، كانت مفاجأة رائعة بكل المقاييس، ولا تخطر على البال، آلاف الأسماك، عدد لا نهائى منها يسبح قرب رمال القاع، بكل الألوان وجميع الأشكال، أسماك صغيرة مثل التى توضع فى أحواض الزينة، المدهش أنها كانت تتحرك فى أمان تام وبمنتهى السكينة ولا تشعر بأى فزع، من حركة الأرجل والسيقان الصاخبة

التى تملأ الشاطئ! عالم خفى بديع وساحر لا يعلم عنه الإنسان شيئاً ولا يراه برغم وجوده أمام عينيه!

فى الليل كان السكون بديعاً، نجلس أمام البحر فى ضوء المصابيح القليلة المتناثرة على الشاطئ والخافتة الإضاءة، وفوقنا النجوم تتلألأ فى سماء شديدة الصفاء، أمسيات هادئة نتسامر فيها ونتحدث ونضحك، لكن النوم سرعان ما يغلبنا بسبب تعب النهار الطويل، الذى يبدأ فى السادسة صباحاً، فننام كالقتلى قبل أن تحل الحادية عشرة بقليل!

10

رجعت من الرحلة محملاً بذكريات جميلة، خرجت بها من دائرة الحزن لبعض الوقت، لكن الشوق إليها لم يلبث أن عاودنى بعد أيام، فاندفعت للنادى من جديد وكلى أمل أن ألقاها، قضيت أياماً وحماسى لا يفتر والأمل يراودنى.

لكنى هذه المرة وفى أحد ليالى أغسطس، قابلت أصدقاء ميدان سفير الثلاثة وهم يمشون معاً قرب الملاعب، سلمت عليهم بحرارة ووقفنا نتحدث لبعض الوقت، كانت نتيجة الترم الثانى قد ظهرت منذ أيام، نجحت أنا فى جميع المواد وحصلت على تقدير جيد فى مادتين، بينما رسبوا هم فى بعضها وأصبحوا معيدين فى سنة أولى، كما كنا

نسمى ساخرين من يرسب ويبقى للإعادة، تكلمنا عن الكلية والنتيجة، ثم أخبرونى وهم فرحون بأنهم قابلوها بالأمس هنا فى نفس المكان ونفس التوقيت الذى قابلونى فيه الآن!!

سلموا عليها وتحدثوا معها هى وشقيقتها، كانوا يتحدثون معى كأنى أعرف أنها كانت موجودة، أو كما لو كنت أقابلها وأعرف أخبارها.

بدا هذا اللقاء كأنه أسعدهم إلى حد بعيد، بالطبع أستطيع أن أفهم السبب، ففى هذا الزمن وأيام المدارس مازالت تسرى فى ذاكرتنا، كان لقاء زميلة من الجامعة فى الطريق أو النادى والتوقف للحديث معها، خاصة لو كانت جميلة، أمراً يدعو للفخر والمباهاة ويجلب الفرحة إلى نفوسنا الشابة.

آآآه.. لماذا لم أحضر بالأمس؟ خفق قلبى وأنا أتخيل لو أن هذا اللقاء الذى ظللت أسعى خلفه طوال الإجازة حدث معى لا معهم وكيف كان يمكن له أن يتم؟

أن أجدها أمامى فجأة وسط زحام النادى كما وجدتهم، مجرد التخيل جعلنى أرتجف، بأى وجه كانت ستلقانى؟ شعرت بغصة وهم يحدثوننى عنها، ولا أدرى إن كانوا لاحظوا ما شعرت به من خيبة أمل، ولا إن كانوا أحسوا بمدى حزنى، هل نجحت فى إخفاء الألم الذى غمرنى؟ وأنا أحاول التماسك أمامهم قدر استطاعتى، لا أعرف..

هل حدثوها عنى؟ كما حدثونى عنها، هل قالوا لها إنهم يقابلوننى هنا فى النادى؟ تمنيت أن أعرف، تمنيت أن أسألهم!

وقفت معهم لبضع دقائق، لم أطق أن أشاركهم السهرة فى النادى كما عرضوا، سلمت عليهم ومضيت أجوب النادى، لعلها تكون قد أتت اليوم كما أتت بالأمس، لكن لا.. لم أجدها، كان اليأس قد جعلنى على يقين أنها ليست موجودة، أو أنها حتى لو كانت فى النادى فإننى لن ألقاها!

قمت بعدة جولات وحيداً فلم يكن أحد من أصدقائى الآخرين فى النادى يومها، ثم انصرفت خارجاً وأنا فى حال من الضيق والأسف ألعن حظى العاثر وشقائى الذى صنعته بيدى.

ويبدو أن القدر الذى وضعها فى طريقى أبىَ أن يعطينى فرصة أخرى بعد أن رفست نعمة حبها، فقد مرت الإجازة دون أن أراها، ذهبت كل محاولاتى هباءً، قضيت أياماً طويلة وأنا بين اليأس والرجاء أتعذب بسماع أغانى أم كلثوم وأعانى من اشتياقى إليها ويغمرنى الأسى، فى هذا الصيف أحببت أغانى نجاة أيضاً، ولأول مرة أنتبه إلى أغانيها ومدى عذوبتها، تذكرنى بها لفرط رقتها هى أيضاً..

***

كنت متوتراً وأنا أخطو أولى خطواتى فى الكلية، أبحث عن أصدقائى بعين وعنها بالأخرى، وأحمل هم لحظة لقائها، لا أعرف

obeikan.com

كيف سيكون وبأى وجه ستلقانى بعد لقائنا الأخير، فالأمر فى الكلية ونحن وسط زملائنا مختلف تماماً عن النادى بوسطه الراقى والخصوصية التى نشعر بها داخله.

كنت سأقدر على مواجهة أى رد فعل من جانبها، وأستطيع معالجة الأمر بينى وبينها دون خشية من ملاحقة العيون والتلصص على كل علاقة خاصة كما يحدث بين الطلبة فى الكلية.

أخذت أترقبها فى محاضرتى المادتين اللتين رسبت فيهما، وكنت بالطبع قد عرفت نتيجتها وأنها بقيت معنا بمادة واحدة من الترم الثانى، مر الأسبوع الأول دون أن أراها، ففى هذه السنة لم يكن حضورنا منتظماً بسبب اختلاف مواد الرسوب لنا جميعاً.

تأفف عبد الله من رائحة الدخان وهو ينظر إلى السيجارة التى أشعلتها للتو! لا يدخن ولا يحب رائحة الدخان، لكنى كالمعتاد لم أبال به، كنا نجلس فى أعلى مدرج المحاضرات المزدحم، وهو كعادته لا يتوقف عن الكلام ويحكى لى عن رتابة الحياة فى شقة جدته، وشعوره بالوحدة وهو يعيش بعيداً عن أسرته وافتقاده لشقيقته وأشقائه الصغار، وعن عادات جدته العجوز ونظام حياتها الخانق بالنسبة له برغم طيبتها وحنوها عليه..

قطع حديثه فجأة وهو يتطلع نحو مدخل المدرج، لكزنى بكوعه ثم أخذ ينقر بأصابعه على الديسك ويغنى وهو يضحك أغنية فريد الأطرش، يا جميل يا جميل يا جميل، على حبك بان لى دليل..

تسمرت مكانى وأنا أراها تدخل من الباب الأمامى الصغير للمدرج مع صديقاتها وتجلس فى الصفوف الأولى، آه.. أخيراً!

كنا نحن نفضل الصفوف الخلفية فى الأعلى حتى نكون على راحتنا بعيداً عن دكتور المادة وهو يلقى المحاضرة، وحتى يتسنى لنا التسلل خلسة من الباب العلوى وقتما نريد فى المحاضرات المملة التى كنا نضيق بها فنسارع بالفرار والتزويغ من المدرج!

أخذت أنظر إليها وأتأملها بشوق جارف وقلبى يخفق بشدة، حتى شعرت أن جميع من حولى يسمعون ضرباته القوية المتلاحقة، وسرت رجفة فى أطرافى عجزت عن السيطرة عليها، أصابنى الارتباك تماماً وشعرت بالعجز أمام هذه الإنسانة الرقيقة الوديعة، التى حولها العشق فى نظرى إلى كائن أسطورى مهيب أخشى سطوته إلى هذا الحد العجيب، الذى اندهشت له وحاولت دفع تأثيره ومقاومته دون جدوى، حتى أن عبد الله استغرب هذا الوجوم الذى حط علىَّ وأنا أقف ساكناً لا أتحرك، فقال بين الجد والمزاح.

– أذهب يا بنى آدم وكلمها قبل أن تطير منك!

فقلت له باقتضاب.

– بعد المحاضرة.

– أنا لو مكانك، والله لكنت انتظرتها على باب المدرج!

كنت قد رسمت صوراً متعددة فى خيالى لهذا اللقاء الأول بينى وبينها، لكننى فى أشد هذه الصور يأساً لم أتخيل أن أصل إلى هذه الحالة التى كنت عليها!

تتبعتها بعد المحاضرة، أسرعت خلفها لألحق بها عند باب المدرج ليبدو لقائى بها كأنه مصادفة، اقتربت منها وضربات قلبى تعلو حتى حاذيتها ثم تقدمتها بخطوة والتفت ناحيتها لأسلم عليها عندما تواجهنى، لكنها بدورها التفتت إلى الناحية الأخرى ومرت دون أن تنظر إلىَّ، فلم أجرؤ أن أنادى عليها، ووقفت للحظات أكاد ألهث، ثم تابعت سيرى وسط زحام الطلبة وأنا مطأطئ الرأس وفى أشد حالات الخزى والخجل.

لقد تجاهلتنى تماماً، أعترف أنى أستحق منها هذا، إنها لا تعرف حقيقة مشاعرى ولا إلى أى حد أصبحت متيماً بها، لقد أحببتها إلى درجة الخوف منها ومن مواجهتها، فى الوقت الذى كان معروفاً عنى الجرأة فى التعامل مع الفتيات، وأتعامل معهن بمبدأ المساواة بين الجنسين كما أتعامل مع أصدقائى الشبان، وهو نفس الأسلوب الذى كنت أتعامل به معها من قبل!

حاولت فى الأيام التالية أن أكلمها، لكنى لم أستطع! حبى لها أضعفنى وأفقدنى كل جرأة، حتى أصبحت أرتبك ولا أستطيع السيطرة على نفسى كلما رأيتها، وأعجز عن الاقتراب منها واقتحام عرينها!

كنت الوحيد من مجموعة ميدان سفير الذى انقطعت صلتها به، فقد عرفت أنها كانت تسلم عليهم إذا ما التقت بواحد منهم وتتكلم معه كصديق حتى سامى كان يراها ويكلمها كثيراً، وبقيت أنا تنقصنى الشجاعة لأفعل هذا الأمر البسيط أو الذى يبدو كذلك وهو من أصعب ما يمكن.

كنت أود أن أراها بمفردها ولو مرة واحدة لأستطيع أن أرفع الحرج الذى يسببه وجود صديقاتها حولها، فيما بينى وبينها سأتحمل أى رد فعل وأشعر أنى أعرفها بما يكفى للسيطرة على انفعالها وعلى الموقف بأكمله، لكننى لا أستطيع أن أتحمل عيون صديقاتها اللعينات وهن يرمقننى وأقدم على هذه الخطوة تحت سمعهن وبصرهن!

11

أحبها إلى درجة الهيام، كل ذرة فى كيانى تعشقها، أتعذب إلى الحد الذى لم أستطع معه الكتمان، كان الأمر أكبر من طاقتى، فضحتنى عيونى ولم يخف حالى على جميع أصدقائى فى الكلية، حتى كنت ألمح نظرات الإشفاق تطل من أعينهم.

البعض منهم لم يطق هذا التخاذل والهوان فينصحنى بالإقدام وقطع العرق وإسالة الدم مهما تكن العواقب، حتى سامى نفسه أشفق علىَّ

إلى درجة أنه عرض أن يكلمها ليصلح بيننا، لكننى رفضت بشدة وحذرته أن يفعل ذلك، مع أننى كنت عاجزاً.. عاجزاً إلى الحد الذى كنت أستغرب أنا نفسى منه!

أراها فأصاب بما يشبه الشلل وينزل علىَّ سهم الله، وتنتابنى حالة من العبط أجد نفسى معها مكبلاً لا أقوى على فعل شىء، سوى النظر إليها بوله العاشق، والحسرة تكاد تمزقنى وهى لا تبالى بى وتمر دون أن تلتفت إلىَّ، وأنا أعض نواجذ الندم ولا أكف عن لوم نفسى وتقريعها لأننى أضعتها من يدى بهذه السهولة.

برغم أن تأثرها لم يخفَ علىَّ وأنا أراها على البعد تدخل فى حالة من الانطوائية ويكسوها حزن، كنت الوحيد الذى يشعر به ويفهمه، فهو جزء من حزنى أنا أيضاً.

عبد الله كان أكثر الجميع إحساساً بى، لم يكف عن قوله إن فى الحب كما فى الحرب الهجوم خير وسيلة، وينصحنى بالإقدام والإلحاح عليها بالحب ومطاردتها حتى تستجيب وتنتهى بيننا القطيعة، التى كان يستغرب لها ولا يدرك بالضبط سببها ولا كيف حدثت..

كنت أذهب مبكراً إلى محطة الأتوبيس القريبة من بيتها وهى قبل محطتى لأنتظرها، وعينى على ناصية شارعها أترقب إطلالتها، حتى تمر عدة أتوبيسات وأتأخر على موعد المحاضرة الأولى دون أن تأتى.

فى إحدى هذه المرات بلغ من حنقى بعد أن وقفت أنتظرها لما يقرب من الساعة، أن قررت عدم الذهاب إلى الكلية وقضيت اليوم أتسكع فى الشوارع، لكن المفاجأة التعيسة كانت بانتظارى فى اليوم التالى، فما إن قابلت أصدقائى حتى انتحوا بى جانباً بعيداً عن الفتيات وسألونى عن سبب غيابى بالأمس؟

لقد قلبنا عليك الكلية وظللنا نبحث عنك فى كل مكان! شاهدوها جميعهم وهى تجلس للمرة الأولى بمفردها فى حديقة الكافيتريا ولأكثر من ساعة مستغرقة فى المذاكرة، كانت فرصة ذهبية لك لتكلمها على انفراد وتجلس معها، لكن نعمل إيه فى حظك النحس! لم يكن ممكناً أن أخبرهم أننى غبت بسببها ولأننى كنت أنتظرها فى مكان آخر، المكان الخطأ بكل أسف؟!

استغربت لهذه اللعبة التى يلعبها القدر معى ولهذا العناد الذى يعاملنى به ويحول بوسائله ومصادفاته بينى وبينها، عرفت بعد ذلك أن والدها كان يوصلها بسيارته فى الصباح الباكر، ففى هذه السنة لم نستطع الاشتراك فى أتوبيس الكلية لأن الراسبين لا يُسمح لهم بذلك!

***

يؤلمنى أن أرى صداقتها تتوطد مع هذا الشاب السمج، يقتلنى الغيظ وأنا أراه يقف مع شلتها من البنات، بل أصبح كثيراً ما يتمشى معها

بمفردهما، هذا البائس هو صديقها الوحيد، بينما أنا ومشاعرى الجارفة نحوها وعشقى الطاغى لها وهيامى المجنون بها.. لا شىء!!

الحياة فى الكلية جارفة برغم كل شىء، سنة الإعادة بالنسبة لنا كانت حافلة بالرحلات والمرح، جدولنا كان خفيفاً وهناك الكثير من وقت الفراغ الذى نقضيه ونحن نتنقل بين جنبات الكلية بمساحتها الشاسعة وحدائقها الكثيرة وملاعبها، اشتركنا تقريباً فى جميع الرحلات.

كنت أفعل كل هذا وأنا أشعر بأن شيئاً ينقصنى، كنت أحب أن تشاركنا ياسمين ولكن.. وضعت حزنى فى مكان ما فى أعماق النفس، لأشارك أصدقائى وأستمتع معهم بحياتنا الجامعية، لكنى ظللت أتابعها على البعد وأترقب أخبارها، كنت على ثقة بأن قصتنا لم تنته بعد!

***

أصبحت فريدة عضوة أساسية فى شلتنا، كنت فى بداية العام الماضى أتمنى أن أتعرف عليها أو أكلمها، والآن أضيق بثرثرتها ورغيها الذى لا ينقطع، مشاعرى ناحيتها محايدة تماماً، لا تتجاوز صداقة الشلة والزمالة!

أدهشنى أنى كنت أحلم بها، أحلام غير بريئة، قيود العقل الباطن كانت تنفك وأنا نائم، وتخرج رغباته المجنونة من أسرها وتنطلق فى سماء الشبق، عارمة صاخبة.

أستيقظ من نومى وأنا أشعر بالخجل من نفسى، مستغرباً وقاحة الحلم وفحشه وألاعيب اللاوعى وتداعياته، من أى منطقة فى النفس يأتى بهذه الرغبة؟ إلى أى عمق يغوص ليستخرج هذه الخيالات الجنسية؟!

فهذه الأمور لا تخطر على بالى فى الواقع، ولا أفكر فى أى فتاة من فتيات الكلية على هذا النحو، وأجد أن هذا السلوك يتنافى مع المروءة، وكنت لا أحترم من ينزلق فيه من زملائنا، وهم كثيرون! وعلى رأسهم عادل "عصير" صديق شلتنا! كانت واحدة من الفتيات قد أطلقت عليه هذا الاسم تهكماً وضيقاً بتطفله على شلتنا، فأصبح هذا لقبه بيننا!

ربما فى البداية فقط، خلال أيامنا الأولى بالكلية كان الأمر معها مختلفاً بعض الشىء، لا أزال أتذكر البنطلون الجينز الضيق، بنطلون سنة أولى، وكيف كنت أتابعها من بعيد وأتأمل تفاصيلها، خاصة شعرها الذهبى الداكن الطويل وهو يتهدل على ظهرها الممشوق.

كان هذا قبل أن أتعرف على الفتيات وأصادقهن، وأبدأ فى التعامل معهن كأخوات وزميلات، وبلا أى نواياه خبيثة.

عندما كنت أقابل فريدة بعد حلم من هذه الأحلام، كنت رغماً عنى أبتسم وأنا أنظر إليها، وأغلب الظن أنها كانت تحتار فى تفسير هذه الابتسامة! وتنظر إلىَّ متسائلة، لكنى كنت أتجاهل نظراتها، لم أكن

أهتم كثيراً بمشاعرها، أو بما تفكر فيه! برغم توطد علاقتنا مع الأيام.

***

القدر يلعب معى أحد ألعابه المفضلة، مستخدماً وسائله اللانهائية فى التحكم بحياتنا ومساراتها، ففى الوقت الذى أسعى فيه خلف ياسمين وأفكر بكل الطرق فى استعادتها أو مجرد لقائها فى اللحظة والمكان المناسبين وأفشل فى ذلك فشلاً ذريعاً، أجد فريدة أمامى! أصادفها وأنا فى طريقى للكافتيريا فندخل معاً، أكون جالساً بمفردى فتأتى ونجلس معاً قبل أن يلحق بنا بقية أفراد الشلة!

لمحها نجيب وهى تقف معنا، مر بجانبنا وحدق فيها للحظات قبل أن يواصل طريقه..

قابلنى بعدها فى الممر المؤدى للمعمل، فقال مداعباً لكن بنبرة جادة وعيناه تبرقان بحسرة لم يستطع إخفاءها.

– هى البنت دى كمان بقت معاكم فى الشلة، مش تخلوا عندكم رحمة!

انفجرت ضاحكاً وخبطته على كتفه بكف يدى، فابتسم ثم لم يتمالك نفسه وضحك.

– لأ.. ما فيش رحمة، إن كان عاجبك!

– عاجبنى يا سيدى عاجبنى..

مر بنا عبد الله ونحن نتحدث، وتقريباً سمع ما قاله عن فريدة، فعاتبنى عندما دخلت المعمل، قلت له، هذا مجرد مزاح لا تهتم به!

– أصل الواد ده غلس.

كان يقول عن نجيب إنه أرذل شخص فى الدفعة، ده ربنا أعطاه الغلاسة ليوزعها على الناس فطمع فيها وأخذها كلها لنفسه، وعندما يرانى أتكلم معه كان يستغرب من صداقتنا، فكنت أقول له، نجيب هو أول صديق تعرفت عليه فى الكلية..

12

مرت سنة أولى مكرر بسرعة، وبلا كلمة واحدة مع ياسمين! غربة كاملة حدثت بينى وبينها، كأننا لم نتكلم معاً يوماً، كان تعلقى بها يزداد وحبى لها لا ينطفئ، لا أعرف كيف كانت تفكر ولا كيف كانت حقيقة مشاعرها تجاهى؟ هل كنت واهماً؟ كل هذه المشاعر والأفكار كانت مجرد خيال دار فى نفسى، بينما هى تنظر لى كزميل عابر تعرفت عليه لبضعة أسابيع ثم انتهى كل شىء!

لم أحاول أن أكلمها طوال هذه السنة، برغم أنى كنت أفكر فيها بشكل محموم، ألوم نفسى ليس فقط على ضياع حبها، ولكن لأنى لم أستطع الاحتفاظ بها حتى كزميلة مثل غيرها من الفتيات! على الأقل كنت سأستطيع الكلام معها.

كانت أعصابى لا تتحمل رؤيتها، عندما ألمح طرفها أو أشعر بوجودها تنتابنى كل أعراض التوتر، رعشة فى الساقين وخفقان فى القلب وأرتبك حتى أعجز عن الكلام، كنت أشعر بالغيظ من نفسى وأرفض هذه الحالة وفى نفس الوقت لا أستطيع التغلب عليها!

مع بداية العام الثالث والتحاقنا بالفرقة الثانية، دخلت الكلية وأنا عازم على اتخاذ موقف أخرج به من هذه الحالة، أحفز نفسى وأشجعها على الإقدام، سأكلمها، سأكلمها، لن أخشى شيئاً، لن أخاف منها، هل هذا يُعقل.. أخاف منها؟ كيف يمكن هذا، ما هذه الخيبة؟!

كنت قد قضيت الإجازة هذه المرة أيضاً وأنا أبحث عنها فى النادى، لا أذهب عمداً ولكن فى مواعيدى العادية، الاسكواش والسباحة والجلوس مساءً مع الأصدقاء، لكن عيناى كانتا تبحثان عنها بمجرد دخولى النادى.. بلا جدوى!

مع انتظام المحاضرات أصبحت أراها يومياً فى المدرج وأملأ عينى منها، من بعيد، وأترقب اللحظة المناسبة لأكلمها، أحن إلى صوتها وحديثها..

فى إحدى المرات قال لى عادل عصير وكان يجلس بجوارى مصادفة، ورآنى أنظر إليها.

– كلمها يا أخى وليكن ما يكون!

ضايقنى أن أكون مفضوحاً أمامهم هكذا! خاصة عادل الذى لم أكن أحب أن يتدخل فى أمر من أمورى الشخصية، لكنه أكمل دور الصديق الناصح قائلاً.

– أسمع.. هذا الوضع يجب أن ينتهى، كلمتين وتخلص، نعم أم لا، ستعرف إن كانت تحبك مثلما تحبها، أم أنها لا تفكر فيك وأنك تعيش فى أوهام، فى الحالتين سوف ترتاح.. صدقنى.

رددت عليه بنفاد صبر حتى يسكت.

– سوف أكلمها.. إن شاء الله.

– لا توجد فتاة تستحق هذا العذاب، فهن كما ترى مثل الهم على القلب، حولنا فى كل مكان وعلى كل شكل ولون!

– اسكت .. أرجوك.

صاح مستغرباً.

– يااااه.. تحبها إلى هذا الحد!

***

فى هذا الوقت وبعدها عنى يكاد يفقدنى صوابى، وحبى لها يقترب من التقديس، حتى لم أعد أراها كسائر البشر، كنت أنظر لها كشىء سام، كأننى لم أخلق إلا لأحبها، كأن الناس خلقوا من طين وخلقت هى من عنبر، كأن الأرض لم يعد فيها سواها، والحياة لا تعنى شيئاً بدونها..

رأيتها فى صباح أحد الأيام تقف مع صديقاتها بالقرب منا، على بعد عدة خطوات، استجمعت شجاعتى وتركت أصدقائى وتقدمت منها، كانت تقف مع صديقاتها تحت نخلة فى الحديقة.

تطلعت عيونهن إلىَّ باستغراب وسادهن الصمت وأنا أقترب لألقى عليها التحية.

– صباح الخير.

تفرست فى وجهى كأننى غريب مقتحم ثم ردت باقتضاب، وهى تنظر إلىَّ بقوة وتحد وتشمخ بأنفها فى كبرياء.

– صباح النور.

سألتها وقد بدأ الحرج يتملكنى.

– إزيك.. عامله إيه؟

ردت باستنكار وبلهجة تشوبها السخرية وإلى حد ما عدائية.

– عامله إيه فى إيه؟!

كأننى هويت بغتة من فوق حصان يجرى بأقصى سرعته على أرض ملأى بالصخور! ارتج علىَّ وتلعثمت وأنا أعاود سؤالها عن أحوالها فى الدراسة وفى الحياة عموماً، ردت بكلمة واحدة لتنهى الحوار..

– كويسة!

شعرت بنظرات العداء والتحفز من صديقاتها، وقد اقتربن وأحطن بها كسرب من الغربان كأنهن يتحدن ضدى، أو كأنهن يحمينها من هذا المتطفل الذى اقتحم تجمعهن اللعين! لا أدرى ما الذى حكته لهن

عنى، لكن كان من الواضح أن صورتى لديهن من أسوأ ما يمكن، لم أبال بهن وقلت لها وأنا أغادرهن.

– أتمنى أن تكونى دائماً بخير.. عن أذنك.

رجعت نحو أصدقائى وأنا فى غاية الحنق من نفسى ومنها وقد أصابنى رد فعلها القاسى بصدمة، وكانوا قد لاحظوا للأسف الموقف بتفاصيله وسمعوا ردها واضحاً من مكانهم القريب، سادهم الوجوم للحظات ثم انطلقت ضحكاتهم وتعليقاتهم تشبعنى سخرية، ففى هذه السن لم نكن نعرف الرحمة فى مثل هذه المواقف، كنت أشعر بالخجل والخزى لكن ما آلمنى حقاً هو إحساسى بأنى فقدتها نهائياً وأنه لا سبيل للعودة إليها مرة أخرى، وأنها أصبحت تكرهنى إلى هذا الحد الذى لا تطيق معه مجرد الكلام معى.

بعد أيام أحد أصدقاء الشلة، ويبدو أنه فكر كثيراً فى مأساتى وخيبتى النادرة فى الحب، اقترح علىَّ أن أسجل مجموعة من الأغانى التى تعبر عما فى نفسى على شريط كاسيت، وأقدمه لها!

– أعطه لها وانصرف من أمامها دون كلام، ستفهم.. ولو كانت تفكر فيك سوف تأتى هى لتكلمك..

وجدت هذا الاقتراح فى منتهى السخف، وحركة بلدى لم تعجبنى، كما أنها لن تعجبها حتى لو كانت....

لم أكن على استعداد أن أذل نفسى من أجلها أو من أجل أى شىء مهما كان، فقد ظل ردها القاسى يطن فى عقلى أياماً، ويطاردنى

الإحساس بالهوان حتى كرهت نفسى التى أحبتها، ولم يكن أمامى سوى الاحتفاظ بكرامتى والابتعاد عن طريقها، وهو الأمر الذى لم يكن هيناً.

هل تكرهنى حقاً؟ عاملة إيه فى إيه؟ يا له من رد، كأنها كانت تنتظر هذه اللحظة لتنتقم لكبريائها.

سأبدأ طريق النسيان، هل أستطيع؟

13

فى هذه السنة وأنا بالفرقة الثانية تعودت أن أذاكر مع أصدقائى القدامى، أصدقاء المدرسة، التحقنا بكليات مختلفة، لكن لم تتفرق بنا السُبل، اتفقنا أن نتجمع يومياً فى بيت أحدنا لنذاكر، بعد أن زهقنا وشعر كل منا بالممل من المذاكرة بمفرده.

كنت أبحث عن أم كلثوم فى الراديو، أقلب المحطات حتى أجدها، أخفض الصوت وأذاكر على أغانيها، كانوا يتركوننى أتحكم فى الخلفية الموسيقية لجلستنا بلا اعتراض، كنا نذاكر بجدية وبلا هوادة، نجلس متفرقين فى الغرفة وكل منا مستغرق فى أوراقه وكتبه.

نادراً ما كنا نتحدث عن كلياتنا وما يجرى لنا فيها من أحداث، خاصة فيما يتعلق بزميلاتنا، حياتنا الخاصة كأصدقاء طفولة كان بها الكثير من الموضوعات التى نتشارك فيها وتشغل تفكيرنا،

بالإضافة إلى الأمور العامة والأحداث السياسية التى لا نتوقف عن الكلام حولها، كانوا يعلمون فقط أنى معجب بفتاة فى الكلية لكن دون معرفة أى تفاصيل عن تلك العلاقة..

لكن فى بداية أحد هذه المساءات، وأنا أقلب محطات الراديو انطلقت فجأة أغنية فريد الأطرش، يا حبيبى طال غيابك ليه، سرحت معها، أحسست بكل ما فيها من مشاعر الشجن، والعتاب الرقيق المنساب مع موسيقاها سرى إلى نفسى فتذكرتها، رقتها، دفء مشاعرها، ابتسامتها، مشيتها الرشيقة، ملامحها الصافية.. يحاصرنى صوت فريد الأطرش الشجى الحزين.

لما فراقك عنى طال حسيت بغربة فى الدنيا، وحيد شريد من غير آمال، أنادى صورتك فى عنيا..

تذكرت أيامنا، أتوبيس الكلية، ومكاننا على رصيف ميدان سفير وامتحانات سنة أولى، صعب علىَّ وعز على نفسى غيابها وابتعادها عن حياتى، كم أشتاق إليها، آآه كم أنا نادم على تفريطى فيها وفى حبها.

يا واحشنى ومشتاق لجمالك، يا فايتنى وسايب لى خيالك..

أتذكر قسوتها ونظرتها الحادة وردها العنيف، أنا أستحق، أعترف، أود أن أعرف حقيقة مشاعرها، هل كانت تحبنى فى تلك الأيام؟ والآن هل تكرهنى؟ أم إنها فقط غاضبة! هل تعرف مدى عشقى لها الآن؟ ربما تكون قد سمعت من ثرثرة البنات فى الكلية..

لم ألحظ وأنا هائم مع أفكارى أن أصدقائى الثلاثة قد توقفوا عن المذاكرة تقريباً، وأخذوا يتطلعون نحوى مستغربين!

– إيه يا بنى مالك، بنت إيه اللى تعمل فيك كده؟

– إيه.. فيه إيه؟

– ده إنت ناقص تعيط!!

انتبهت إلى الحالة المزرية التى وصلت إليها، فقلت معانداً.

– أبداً.. عادى!

قال عماد طالب الطب والذى كنا فى بيته، وقد استولى عليه الاهتمام.

– اسمع.. سوف نعمل شاياً، نستريح قليلاً من المذاكرة وتحكى لنا.

كنت بالفعل أريد أن أفضفض عما فى نفسى، كنت أريد أن أحكى عنها، فهم لا يعرفونها، لم يعرفوا أبداً أنها الفتاة التى رأوها فى النادى منذ سنتين، فلم أحك لهم، وربما لم يعودوا يتذكرون أصلاً هذا الموقف العابر..

أشعلت سيجارة وأمسكت بكوب الشاى الساخن وبدأت أسرد التفاصيل التى لم يسمعوا بها من قبل.

انتهيت عند كلمتها الأخيرة الموجعة، فاندفع عماد صائحاً..

– إنت حمار يا ابنى؟! لماذا تركتها ومشيت؟ كانت تفتح معك باباً للحوار والجدل حتى تواصل الكلام معها، ستعاتبك وهى متأكدة أنك ستعتذر وتسترضيها بكل ما تستطيع حتى تصفح عنك فى النهاية،

كانت تتدلل عليك وتداعبك بقسوة بعدما فعلته معها، هل كنت تتوقع أن ترتمى فى أحضانك لمجرد أنك قلت لها صباح الخير.. وبعد سنة من القطيعة!

– أنت لم تر نظرة عينيها وأسلوبها فى الكلام.

– طبعا غاضبة ومعها حق.

– هل تعتقد أنى لو طلبت منها ساعتها، أن أكلمها على انفراد كانت ستقبل؟

تلجلج لعدة ثوان قبل أن يقول.

– تقريباً.. أظن أنها كانت ستقبل.

– أنا فكرت لحظتها أن أطلب منها هذا، بل أننى تقدمت أكلمها لهذا الغرض، أن نتمشى أو نجلس معاً لنتكلم براحتنا، لكن نظرات صديقاتها العدائية وأسلوبها فى الرد جعلنى أتراجع، مكتفياً بما لحقنى من إهانة، أعصابى لم تكن لتتحمل المزيد.

علق شريف طالب الحقوق الذى سيصبح وكيلاً للنيابة بعد تخرجنا، وهو يهز رأسه.

– زعل البنات وِحش وصعب! اسمع منى، بعد الموقف الذى عملته معها فى آخر أيام الامتحانات، لا يمكن أن تسامحك، لقد انتظرتك يومها وجاءت لحد عندك، هل تفهم هذا؟

– نعم فاهم..

– جاءت بنفسها لحد عندك! وهى كما تقول جميلة وأنيقة وبنت ناس، وطبعاً هناك ألف واحد يتمنى أن يكلمها أو ينال منها نظرة، وهى تعرف هذا بالتأكيد.

– طبعاً.

– معنى أن تأتى لتقف بجوارك يومها، أنها كانت تثق تمام الثقة فيك، لم يكن لديها ذرة شك أنك ستسرع إليها، لابد أن تلاحظ أيضاً أنها فى هذا اليوم لم تكن مع صديقاتها، يعنى تركتهن من أجلك، ووقفت تنتظرك بمفردها..

– نعم..

– لقد قتلتها فى هذا اليوم! لم تجرح مشاعرها فقط لكنك قتلتها، البنات لسن مثلنا، خاصة هذه النوعية منهن، الرقيقة المهذبة المرهفة الإحساس، لا تعطى مشاعرها إلا لإنسان واحد فقط، إنسان تثق فيه ثقة كاملة، وتكون على يقين أنه سيصون هذه المشاعر ويحافظ عليها، ولن يخذلها أبداً، غير مستبعد أنها جاءت إليك يومها تستنجد بك من هذا الشاب الثقيل، لأنها كانت على ثقة إنك ستحميها منه، لكنك فعلتها! وصدمتها صدمة قاتلة، وبلا مبرر، بلا سبب، من المؤكد أنها حتى هذه اللحظة لا تعرف سبب تصرفك هذا، ولا سبب إهانتك لها وتغير سلوكك معها على هذا النحو المفاجئ.. لن تعود إليك مهما فعلت! ولن تصفح عنك.. أبداً! هل تعرف لماذا؟

قلت بنفاد صبر.

– لماذا؟

– لأنها فقدت الثقة فيك، فقدت شعورها بالأمان وهى معك، لن تطمئن لك بعد ذلك!

– لم أتصرف بهذا الشكل إلا من غيرتى عليها وشدة حبى لها.

– هذا أساس المشكلة، وسبب مأساتك.. تصرفك غير المفهوم لها، لو أنها عرفت أنك فعلتها غيرة وحباً لكانت سامحتك وغفرت لك، وفى داخل نفسها كانت ستسعد بغيرتك عليها، فهذا يؤكد لديها أن ثقتها فيك فى محلها وأنك فتاها ورجلها، حتى لو أظهرت الغضب وزعلت منك لبعض الوقت!

جذب شريف نفساً طويلاً من سيجارته ورشف رشفة من كوب الشاى، ثم ألقى فى وجهى بكلمته الأخيرة.

– لابد أن تنساها، مهما كان هذا صعباً عليك، فمشاعرها قد ماتت من ناحيتك ولن تعود، خاصة بعد مرور كل هذا الوقت، من سوء حظك وربما حظها أيضاً، أن هذا الموقف حدث فى اليوم الأخير قبل إجازة نهاية السنة الطويلة، ربما كان يمكن تدارك الأمر لو حدث هذا الموقف والمشاعر مازالت ساخنة أثناء سير الدراسة، أما الآن فقد فات الأوان.

– لقد قتلتنى يا شريف.

– كان القدر ضدك يا صاحبى منذ البداية، فهى ليست من نصيبك.

– الله يخرب بيتك!

ضاعت الليلة، قال عماد وهو يقف، ثم أكمل، تعالوا ننزل بعد هذا النكد لنكمل السهرة فى أى مكان، نظرت فى الساعة فوجدت أنه قد مرت ساعتان تقريباً منذ أن بدأت أحكى لهم! فرحبت بهذا الاقتراح فلم يكن عندى أى رغبة فى العودة للمذاكرة، وكذلك وافق شريف وطارق على فض الليلة والخروج.

14

ونحن على السلم قابلنا والد عماد اللواء فى الجيش والذى يشغل منصباً قيادياً كبيراً، وهو يصعد الدرجات فى مواجهتنا ومن خلفه اثنان من الجنود يحملان بعض الأغراض، توقفنا فى أماكننا احتراماً ولنفسح له الطريق، نظر إلينا مستغرباً وقال متسائلاً وهو يبتسم موجهاً كلامه لنا جميعاً.

– رايحين فين يا صيع، خلصتم مذاكرة بدرى النهاردة على غير العادة!

رد عماد بثقة تليق بطالب متفوق.

– زهقنا من كثرة المذاكرة، وقررنا أن نخرج نشم الهواء.

رمقنا بارتياب متفحصاً كأنه غير مقتنع بهذه الحجة، ثم هز رأسه قائلاً بوقار.

– طيب يا أولاد، اتفضلوا مع السلامة.

ركبنا نحن الأربعة سيارة شريف، وانطلقنا إلى كوفى شوب فندق هيلتون رمسيس على النيل، أحد أماكننا المفضلة فى ليل القاهرة، منذ السنة الثانية لنا فى الجامعة وبعد أن امتلك كل من عماد وشريف سيارة، أصبحنا نقضى سهراتنا متنقلين بين موفينبيك المطار وشيراتون هليوبوليس وسونيستا فى مصر الجديدة، أو نذهب خارجها – خاصة فى الإجازات – إلى فنادق الهرم عند بداية طريق الإسكندرية الصحراوى أو الكافيتريات والفنادق المطلة على النيل، أما فى النهار عندما يكون لدينا وقت فراغ فكنا كثيراً ما نذهب إلى صحراء الهرم لنركب الخيل هناك، فى هذه الليلة أردت أن نجلس قرب النيل فلم يمانعوا.

قال لى طارق طالب الهندسة وهو يجلس بجانبى فى المقعد الخلفى، وبصوت واضح ومسموع للجميع.

– أريد أن أزورك فى الكلية غداً!

فهمت على الفور معنى الابتسامة الخفيفة التى ظهرت على وجهه، كان قد ظل صامتاً يستمع لحوارنا دون أن يتدخل، وبين الحين والآخر تظهر هذه الابتسامة الساخرة على وجهه، تومض للحظات ثم تختفى لتعود الجدية إلى ملامحه الجامدة وعينيه الشهوانية! فهو دون جوان النادى وأكثرنا ولعاً بالفتيات!

– لماذا؟

أجاب بصراحة ووضوح.

– أريد أن أراها، هذه التى سلبت عقلك حتى وصلت لهذه الحال، التى لم أتصور أن تصل إليها، أنت تحديداً، كنت أكثرنا سخرية من هذه الأمور، تهزأ بالحب والعواطف ولا تهتم بالفتيات أصلاً!

نعم.. كنت الوحيد من بينهم الذى بلا مغامرات ولا نزوات، منذ البداية كنت أبحث عن فتاة واحدة، أستغنى بها عن الأخريات جميعهن، كنت أحلم بفتاة نموذج وضعت لها مقاييس خاصة فى خيالى، لا أريد غيرها، ظللت أحلم بها طوال مراهقتى وصباى، واحدة فقط أجعل منها كل نساء العالم، تملأ حياتى ولا أرى سواها من بين كل الفتيات والنساء، جاءت ياسمين لتهدم النموذج الذى حلمت به لسنوات، حطمته تماماً لتحل محله بمنتهى الرقة والنعومة ولم تلبث إلا لحظات خاطفة، ثم.. ذهبت وناءت بعيداً!

– تعال.

– متى؟ ما الموعد المناسب بالنسبة لجدولكم غداً؟

– الثانية ظهراً.

***

جاء ونحن فى حديقة الكافتيريا، رحبت به وعرفته على شلتنا، جلس بجانبى أنا وعبد الله وسامى، لم يكن يجلس معنا لحظتها سوى فتاتين، تحفظتا كعادة الفتيات فى وجود أحد الغرباء، فأخذتا جانباً، بينما الكلية تشغى حولنا بحركة الطلبة، كانت محاضرات أولى وثانية

قد انتهت منذ قليل وخرج طلاب الدفعتين لينتشروا كعادتهم فى جميع أنحاء الكلية حدائقها وطرقاتها.

تأمل طارق المكان والحديقة التى نجلس فيها وهو يحتسى قهوته ويدخن وقال.

– كليتكم جميلة يا حظكم، كأنكم فى نادى، حتى القهوة هنا رائعة!

علق عبد الله على كلامه ضاحكاً واشترك سامى فى الحديث معهما، بينما كنت أتطلع مترقباً ظهورها، كنت رأيتها فى مدرج المحاضرات، وأعلم أنها سوف تظهر مع صديقاتها فى أى لحظة، ليجلسن فى الحديقة الرئيسية أو يتمشين حولها.

كان طارق يتحدث مع عبد الله وسامى ويتطلع لى بعينيه بين الحين والآخر متسائلاً، أقبلت فريدة وبقية الفتيات وأخذن يجلسن وقد أحرجهن إلى حد ما وجود طارق!

قمت بهدوء وأنا أقول له، تعال لنتمشى وتتفرج على الكلية، بمجرد أن ابتعدنا صفر بفمه وقال وهو يتطلع حوله.

– مستوى الجمال فى كليتكم مرتفع بشكل ملحوظ!

ثم أضاف متسائلاً.

– هذه البنت الشقراء التى جاءت فى الآخر، هل هى فى شلتكم أيضاً؟

– فريدة.. مالها؟

– جميلة جداً، تحفة.. يخرب بيتها!

– لا شأن لك بها، إحنا فى إيه ولا إيه، الله يخرب بيت أمك.

– هههههههههه طيب خلاص.. أين هى؟

سرت معه باتجاه الكانتين الصغير الذى تُباع فيه علب البسكويت والشيكولاتة والعصائر، كانت تقف أمامه مع صديقتين لها، ونحن نقترب ميزتها له بما ترتديه، دون أن أنظر ناحيتها، عندما وصلنا وقفت على جنب وقد توترت وشعرت بالسخونة تسرى فى جسدى، كنت على بعد خطوتين منها!

تقدم هو متطلعاً إلى صناديق البسكويت والعصائر، كأننا ما قدمنا إلا لهذا الغرض، وتعامل مع الموقف بتلقائية وبساطة فسأل عن أنواع معينة من العصائر، والتفت ناحيتى يسألنى إن كنت أريد أن أشرب شيئاً.

– لأ.. شكراً.

اختلست نظرة إليها من خلف النظارة دون أن أحرك رأسى، فالتقت أعيننا، كانت تنظر ناحيتى دون أن تعرف أنى أنظر إليها! وأنا أقف فى مكانى متخشباً، كنت غاضباً منها ومازلت أشعر بالإهانة، وكنت أيضاً لا أطيق أى واحدة من صديقاتها، أصبحت أكرههن كراهية شديدة! كن كالحائط الذى يقف كسد منيع بينى وبينها!

كانت قد انتهت من الشراء فتحركت من مكانها ومرت بجوارى، وعلى وجهها شبح ابتسامة، كدت أو تمنيت أن أقول لها، أزيك يا ياسمين، كأننا أصدقاء قدامى التقيا مصادفة، لكنى خفت منها؟! نعم

بهذه البساطة ودون أى مكابرة، خفت منها ومن رد فعلها! لم يكن فى طاقتى القدرة على تحمل كلمة أخرى أو حتى نظرة تمس كبريائى، ربما لو قلتها لتغيرت حياتى وحياتها.. لا أدرى!

– عندك حق!

قالها طارق بأسى بمجرد أن ابتعدت عنا وقد انكسف وجهه، كنت أعلم أنه ما جاء إلا ليسخر منى، وكان على أتم استعداد أن يجعل من هذا الأمر مادة للتندر والمزاح فى سهراتنا! لكن موقفه تحول إلى النقيض بعدما رآها..

– جميلة وساحرة وفى غاية الرقة، تستحق هذا الحب، تستحق أن تبكى من أجلها يا صديقى، كيف تركتها تضيع منك؟! كيف هان عليك أن تصدها وتجرحها!

.....–

كانت عيناى قد اغرورقتا بطبقة من الدموع تحت النظارة، فلم أرد.

التفت نحوى فجأة وقد توقف عن المشى.

– لماذا أشحت بوجهك عندما مرت بجوارك؟

باغتنى السؤال تماماً، آخر ما كنت أتوقعه.

– أنا.. كيف هذا؟ لم أفعل، كنت أقف ثابتاً وأنظر أمامى.

– يبدو أنك فعلاً لا تشعر بنفسك ولا بما تفعله فى وجودها!

هل أشحت بوجهى عنها.. حقاً، يا للتعاسة، أردت فقط أن أبدو لا مبالياً، غير مهتم، حتى لا تشعر أننا جئنا إلى الكانتين من أجلها.

– كنت تقف متجهماً مكفهراً بينما كانت هى لطيفة بشوشة، تقريباً لمحت ابتسامة على وجهها ونحن نقترب منها.

– أتوتر عندما أقترب منها، وأشعر بالغضب منها ومن نفسى ومن القدر الذى فرق بيننا، ولا أحب أن أستجدى مشاعرها، ربما عقلى الباطن يرفض أن تشعر بالشفقة تجاهى لو أحست بما فى نفسى..

– أنت عصبى وحاد المزاج برغم طبيعتك الهادئة، ولما رأسك تقفل لا تتفاهم، لكنك تظلم نفسك بسلوكك هذا، البنات لا يُعاملن هكذا!!

– ربما كلامك صحيح، أنا أتعامل معهن كما أتعامل مع أصدقائى الشبان، أو كأنهن أخواتى، أعنى أنى أضع مسألة اختلاف الجنس على الهامش، فى منطقة بعيدة جداً.

– الرغبة تعطى الدافع وتجعلك أكثر جرأة، تجعلك مقتحماً وأكثر صلابة لا تخشى شيئاً! لو فكرت فى جسدها أو ما ترتديه تحت ملابسها، هذه القطع الرقيقة الملونة، ستجد دماغك قد سخنت وتوهجت، سيعطيك هذا الجرأة لتتقدم منها وتكلمها، حتى لو ردت عليك رداً قاسياً أو غضبت، فإنك لن تهتم، ستواصل الكلام وتجبرها على الحديث معك، وفى هذه الحالة لا صديقاتها ولا العفاريت الزرق ستحول بينك وبينها!

– لا أستطيع أن أكون قليل الحياء، ولا أستطيع أن أفكر فيها على هذا النحو أبداً.

– هذا إسلوب الخائبين، البنات يحببن الشاب الجرىء المقتحم، هذه الرقة وهذا الخجل الذى أنت عليه لا ينفع!

– على كل حال لم أكن رقيقاً فى تعاملى معها، بل على العكس كنت فظاً غليظاً..

لمحت صديقها ابن الـ... ونحن نتمشى، فأشرت لطارق عليه، نظر إليه ثم ضحك!

– من أجل هذا غضبت! أنت مجنون فعلاً، مجرد عيل زبالة وشمام! ربما يكون ابن بواب عمارتها أو شىء من هذا القبيل.. لا يمكن لمثلها أن تنظر إليه؟!

– نعم ولعل هذا ما زاد من غضبى لحظتها، عندما كانت الأفكار السوداء تتقافز فى عقلى كالشياطين، كان أحد هذه الأفكار، إن من تمشى مع هذا لا تستحق أن أعرفها!

قال ضاحكاً وبلهجة ساخرة.

– أنت طبقى إذن..

– طبقى إيه وزفت إيه، واحد مثل هذا، لماذا تعرفه أصلاً وتمشى معه؟ هل يمكن له أن يخطبها لو تطورت بينهما العلاقة؟ كيف يمكن له أن يصرف عليها؟ لا يستطيع أن يسكن معها فى مجرد غرفة بمكان محترم، ما معنى الصداقة بينهما؟ وهو لا يستطيع حتى أن يشترى لها بنطلوناً أو بلوزة مما ترتديه!

– ولا حتى طقم داخلى وحياتك.. هههههههههه.

– جاتك داهية فى قلة أدبك.

استعاد طارق هدوءه بعد أن انتهى من الضحك وقال بجديه.

– كان يكفى جداً ساعتها أن تعاتبها أو حتى تسمعها كلمتين من كلامك البارد، وكان الأمر انتهى عند هذا الحد..

15

انفجرت المظاهرات فى الجامعة فجأة، كليتنا البعيدة عن مقر الجامعة الرئيسى والمنعزلة بحدائقها ومبانيها عن بقية الكليات تأثرت بحمى المظاهرات، وانتقل إلينا شىء من صخبها، توقفت الدراسة لمدة يومين تقريباً، لكن جدولنا المشحون بالمحاضرات وحصص العملى الطويلة وضيق مدة الترم، جعل حماس الطلبة وثورتهم فى الكليات الأخرى يخفت إلى حد كبير عندنا..

حدثت هناك اشتباكات دامية بين قوات الأمن والطلبة، نتج عنها عدد كبير من الجرحى بينهم عدة فتيات!

كنت أراقب تجمع طلاب كليتنا ووقوفهم فيما يشبه الاعتصام بالحديقة الرئيسية وهم يرفعون اللافتات، ويرددون الهتافات الحماسية، لم ألبث أن انضممت إليهم مع سامى وعبد الله وباقى أفراد شلتنا.

وقفنا على جنب قرب المؤخرة، وبالقرب منا كان أشرف زميلنا فى سنة أولى الذى أصبح يسبقنا بعام دراسى، يقف متأملاً المشهد الصاخب وعلى وجهه تعبير بالاستهجان، نظر إلينا وقال بصوت مسموع.

– تفاهة.. وشغل عيال!!

لكن صوته ضاع فى صخب الزحام ولم يلبث أن انصرف مبتعداً.

رأيت نجيباً فى وسط التجمع يهتف بأعلى صوته وهو محمول على كتف أحد رفاقه، أشرت له مشجعاً وأنا أرفع قبضتى فى الهواء..

لفت نظرى طالب من دفعتنا نحيف الجسد طويل القامة له شعر مهوش، كان يقف وسط حلقة من الطلبة ويلقى شعراً ساخراً يندد فيه بالاستبداد والدولة القمعية، بينما يتغزل فى جمال بلدنا وهو يصف بكلمات حادة ما تعانيه من ظلم، صوته الخطابى العالى كان يصلنا بوضوح برغم بعد المسافة وضجيج الطلبة حولنا.

العساكر وقفوا بخوذاتهم ودروعهم وعصيهم عند بوابة الكلية، فى صفوف منتظمة، بينما أخذ الضباط يتمشون بعصبية أمامهم وهم يرقبون المشهد، لكنهم لم يعطوا الأمر بالهجوم وفض المظاهرة بالقوة! يبدو أن كل ما أحدثه طلبة كليتنا من صخب لم يرق فى نظرهم إلى درجة الشغب التى تستدعى التدخل.. بعد مرور ما يقرب من الساعة انسحبت شلتنا إلى مقرها فى الكافتيريا، ومشاعر متضاربة تتخاطفنا!

تكررت المظاهرات فى هذا العام بدرجات متفاوتة، وصنعت حالة من الإثارة كسرت روتين الدراسة المعتاد، وأشعلت الحماس فى حركتنا وكلامنا ومناقشاتنا التى كانت جدلاً سياسياً لا يتوقف عند حد.

***

لما كانت فريدة تسكن فى منطقة روكسى، عند نهاية مصر الجديدة، فقد كانت بطبيعة الحال تركب نفس الأتوبيسات التى أركبها، وجدت نفسى بعد انتهاء اليوم وبعد تجمعنا المعتاد فى الكافتيريا، أسير بصحبتها إلى المحطة لمرة أو مرتين فى الأسبوع، كان سامى قد اشترك مجدداً فى أتوبيس الكلية، بلا أهداف عاطفية هذه المرة، بينما رفضت أنا تماماً معاودة هذه التجربة المريرة التى كانت ذكراها مازلت تؤرقنى، خاصة بعد أن تأكدت أن ياسمين لم تشترك فيه أيضاً..

وبالطبع كأى جنتلمان كنت أدفع لها ثمن التذكرة عندما نطلع الأتوبيس، وأدعها تجلس أولاً لو وجدت مقعداً فارغاً، وأحياناً أجلس بجانبها فى حالة خلو المقعد المجاور لها.

كانت تقول عن نفسها وهى تتحدانا ضاحكة، أنا ليمونة فى بلد قرفانة، وكنت أنا أندهش من جرأتها وغرورها، لكننا كنا نضحك ونشاكسها ونتحمل غلاستها التى نالنى الكثير منها بسبب زمالة الطريق هذه!

كانت تتعامل معى بشيء من التعالى كما تتعامل مع الجميع، كأن صحبتها شرف لى أو كأنها تُنعم علىَّ عندما تتنازل وتسمح لى بمرافقتها فى الطريق! لكنى لم أكن أهتم ولا أعبأ بعقلها الصغير، ولا بتصوراتها النرجسية عن نفسها وتصرفاتها المندفعة.

قالت لى فجأة ونحن فى الطريق إلى محطة الأتوبيس، إن رائحة البرفان الذى أضعه قوية ونفاذة! نظرت لها متعجباً ولم أرد، فأكملت بتهكم، رائحته حلوة كأنه برفان حريمى!! صحت مستنكراً بصوت عال جعل بعض المارة يلتفتون نحونا.

– حريمى.. يااااه.. يا مغيث، ده إنتِ كارثة.

ابتسمت وهى ترمقنى بطرف عينيها، ثم بدأت تسألنى كأنها تستجوبنى عن اسم البرفان والمحل الذى يبيعه، فعاندتها ولم أرض أن أجاوبها حتى أعرف سر اهتمامها وسبب أسئلتها عن عطر رجالى، فقالت فى النهاية بعد كثير من المماطلة، إنها تريد أن تشترى مثله لأبيها لأن عيد ميلاده اقترب.

***

فى أحد الأيام ونحن نتأهب لمغادرة الكلية، قال عبد الله ضاحكاً.

– هو أنت مكتوب عليك تعرف البنات فى الأتوبيسات؟

– حظ أتوبيسات.. أعمل إيه؟

– أحلى حظ، لكن خذ بالك هذه المرة.

– إنت عبيط يا ابنى؟! أخذ بالى من إيه؟

– المرة الأولى كان معك عصفور مقصوص الجناح، لكنه طار منك؟!

آلمتنى جداً عبارته العابثة، وجرحتنى، فحتى هذه اللحظة وبرغم مرور كل هذا الوقت، لم يكن هو أو بقية أصدقاء الشلة فهموا حقيقة ما حدث يومها! لم يلحظوا فى غمرة انشغالهم بعد الامتحان وسط الضجيج والفرحة بالإجازة، التفاصيل الخفية التى جرت فى السر بينى وبينها، وانتهت بنظرات صامتة بيننا لم يرها أو يشعر بها أحد، وأنا لم أحك لأحد منهم، وكتمت السر فى نفسى، فتصوروا كلهم وعبد الله أولهم، أنها تركتنى وأعرضت عنى من تلقاء نفسها، وأن معاناتى كانت بسبب هجرها لى!

لم أتكلم معهم مطلقاً عن هذا الشاب الغثيث الرث الذى رأيته يمشى معها آخر أيام الامتحانات، وعلاقته المباشرة بتدمير ما كان بينى وبينها! ولم أذكر هذا الأمر من قريب أو بعيد عندما كنا نتحدث عنها، كان هذا سرى الخاص الذى لم أبح به إلا لأصدقاء المدرسة فى لحظة شجن.

***

سافرنا فى رحلة إلى العين السخنة عند منتصف الترم الثانى، لم يكن هناك سوى البحر وشاطئه، وعلى مقربة منه كافتيريا فقيرة مقاعدها متهالكة، قضينا الصباح ما بين الجلوس أمام البحر والتمشية على

الرمال، نداعب بأقدامنا الحافية المياه الهادئة، برغم الصحبة ووجود شلتنا بكامل عددها كنت أشعر بالملل..

قرب العصر صنعت الصدفة وحدها أمراً غريباً، كان هناك عدة رحلات جامعية فى هذا اليوم وجميع الأتوبيسات تقف فى نفس الموقف الواسع الخاص بالسيارات على مسافة من البحر.

تركت الجميع على الشاطئ وذهبت بمفردى إلى أتوبيس رحلتنا بعد أن شعرت بالجوع، كنت قد تركت حقيبتى الصغيرة وبها كيس الساندويتشات على مقعدى، وبينما أخرج الكيس من الحقيبة، سمعت صوت فريدة وهى تزعق مع أحد، كان أحد طلبة رحلة كلية أخرى يلاحقها وهى فى طريقها للأتوبيس، جاءت لتأخذ ساندويتشاتها أيضاً.

نظرت من النافذة ورأيتهما، فجن جنونى، تقريباً كان يريد أن يحصل منها على ميعاد فى الجامعة، ويعرض عليها صداقته بهذا الأسلوب السمج المعروف بين الطلبة الثقلاء، جريت إلى الباب وقفزت منه، وفى لحظة أصبحت بينهما! لم أدع له فرصة للكلام، شتمته على الفور وهددته بمسح كرامته بالأرض، وأنا أصرخ فيه وأزعق له..

مثل كل هذه الأنماط التافهة من البشر، كان جباناً وبلا كرامة، يستطيع التسلل خلف فتاة ليعاكسها لكنه لا يقدر على تحدى شاب مثله، فتراجع وحاول أن يبدو مهذباً وبريئاً، وأنه حسن النية، فقال معتذراً وهو يحاول أن يدارى ارتباكه.

– لم أكن أعرف أنها معك!!

نظرت إليه ولم أرد، فانسحب ومشى من أمامنا، تنفست فريدة الصعداء وزفرت بغيظ، كان وجهها قد شحب لونه وغطت طبقة من الدموع عينيها، قالت بصوت خافت.

– متشكرة.

تغيرت علاقتى بها بعد هذه الواقعة تغيراً جذرياً، برغم أن عبد الله أو أى صديق من شلتنا كان سيتصرف نفس التصرف لو تصادف وجوده مكانى، أما سامى فكان يمكن أن يضرب هذا الشاب، فهو برغم طيبته يفقد السيطرة على أعصابه فى هذه المواقف، فعندما يغضب أو يستفزه أحد، يختنق ويحتبس حلقه ولا يستطيع الكلام، لكنه يستطيع أن يضرب وبمنتهى العنف.. إذا استدعى الأمر!

بعد رجوعنا إلى الشاطئ أصرت أن تعزمنى على طعامها، ولم يكن هذا من طباعها! اعتذرت لها، وكيس طعامى فى يدى بالفعل، قائلاً إن معى ما يكفينى وعزمت عليها بدورى، لكنها عرضت علىَّ ساندويتشاتها قائلة إنها صنعتهم بنفسها، والتقطت أحد الساندويتشات ودفعته فى كفى دفعاً، كانت تنظر لى نظرة جديدة مختلفة عما عهدته منها، نظرة امتنان لا تخلو فقط من الغرور المعتاد لكن يشوبها شىء من الإعجاب!

***

بعد هذه الرحلة أصبحت تنتظرنى فى نهاية اليوم لنرجع معاً، بعد أن كان هذا يحدث مصادفة عندما تتفق مواعيدنا، فهى لم تكن معنا فى القسم.

فى هذا الوقت بدأ سامى يحضر أحياناً إلى الكلية بسيارة والده، كان والده وكيل إحدى الوزارات يستعمل سيارة الحكومة الرسمية المخصصة له بسائق فى جميع تنقلاته ويترك سيارته الخاصة، فاستولى عليها سامى!

يمر علىَّ فى الصباح مرتين أو ثلاثاً فى الأسبوع لنذهب إلى الكلية، وفى العودة تأتى فريدة معنا ليوصلها فى طريقه، سامى يقود السيارة ببراعة ولكن برعونة وتهور، يدخل بين السيارات حتى يكاد يلمسها ثم ينطلق بسرعة عالية، عندما يجد فرصة أو مساحة خالية فى الشارع!

كنت أسمع سباب السائقين وشتائمهم له فأضحك أحياناً وأشتمه فى أحيان أخرى، وفريدة تصرخ فى المقعد الخلفى، كلما اقتربت منا إحدى السيارات حتى تكاد تصطدم بنا قبل أن يتفاداها فى اللحظة الأخيرة، وهو لا يعبأ بهم ولا بنا ويركز تماماً فى الطريق، كأنه يضع الخطط طوال الوقت لاختراق الزحام والمرور بين السيارات، كانت فريدة تفزع من أسلوبه فى القيادة، وتهدد فى كثير من الأحيان بأنها لن تركب معنا مرة أخرى!

***

فى أحد الأيام كنت أنا ونجيب فى مكتبة الكلية، وبعد أن خرجنا منها لم نكد نمشى بضعة أمتار حتى قابلنا فريدة، توقفت بمجرد أن رأتنا وهى تنظر لى، شعرت بنجيب يرتبك وكادت خطواته تتعثر ونحن نقف أمامها، هل يُعجب بها؟ هل يرغبها ويحلم بها؟ لا أعلم، ربما يحبها فى سره.. مثلاً، لا أهتم ولا يعنينى الأمر، كل حى أدرى بحاله! تجربتى البائسة مع ياسمين جعلت مشاعرى فى هذا الجانب جافة وأكثر غلظة.

برغم كل شىء أسعدنى هذا، شعور شرير طبعاً، لكنه موجود فى منطقة ما فى أعماق النفس، الإحساس بالزهو، أن تحصل ببساطة على ما يتمناه غيرك ولا يقدر، امتلاك السيارات الفخمة والمجوهرات والملابس الغالية، جزء أصيل من هذه النزعة، أما المرأة الجميلة فهى أعلى وأروع ما يمكن للإنسان أن يزهو به!

ما إن سلمت عليها حتى تركنا نجيب منصرفاً بعد أن حياها بهزة مرتبكة من رأسه.

كانت قد خرجت من السكشن لتوها ويبدو عليها التوتر، قالت لى على الفور، إنها تحتاج أن تشرب فنجاناً من القهوة، ولا تريد أن تجلس فى الكافتيريا بمفردها.

سألتها بعد أن جاءت القهوة عن سبب توترها، قالت باشمئزاز.

– ضايقونى فى السكشن.. الكلاب، الجِزم!

قلت أمازحها.

– معلش.. أنتِ ليمونة فى بلد قرفانة! الجميع يتطلعون إليك!

– لأ بجد.. لا تكن "غلس" أنت أيضاً!

سألتها بجدية.

– لماذا تركت شلتك القديمة وانضممت إلينا؟

– لأنهم غير محترمين!! وسلوكهم كان غير مريح.. ثم أضافت وهى تنظر فى عينى.

– البنت تستطيع أن تعرف الولد من نظرة عينيه لها، لو كانت فى مكان به مائة شاب وبينهم واحد فقط خبيث النوايا ونظراته لها غير بريئة، فإنها تشعر به على الفور!

صحت مندهشاً.

– هكذا.. إلى هذا الحد!

أجابت بثقة مؤكدة كلامها.

– نعم طبعاً. ثم أضافت قائلة بعد لحظات.

– فاكر صاحبك الذى جاء إلى هنا منذ فترة؟

– طارق.. ماله؟

– واحد منهم! على الرغم أنه مهذب وابن ناس..

يخرب عقلك يا فريدة، قلتها فى سرى وأنا أنظر إلى عينيها الزمرديتين مبتسماً.

– معنى هذا أننا كلنا هنا فى الشلة براءة.. ومحترمين؟!

تذكرت كلمة طارق الأثيرة، الرجل المحترم المؤدب رجل ليس له فى الحريم ويروح يموت أحسن! فضحكت، ضحكت هى أيضاً دون أن تفهم بالطبع سبب ضحكى، وأجابت على سؤالى مبتسمة، وقد نسيت توترها وخرجت من حالة الضيق التى كانت عليها.

– نعم صحيح، ويمكن أنت أطيب واحد فيهم مع إنك عصبى، ودمك ثقيل بالنظارة السوداء التى تضعها دائماً على عينيك!

16

بينما أيام سنة ثانية تمر بصخبها ومظاهراتها، كانت ياسمين تنأى بعيداً عنى، مازلت أحبها فى صمت! لا أستطيع اقتلاعها من نفسى.

هى الحب الأول فى حياتى بكل ما يمثله من مشاعر وعاطفة طاغية، وهزة العشق الأولى التى زلزلت نفسى ولمستنى حتى أعماق الروح.

لم تكن نزوة عابرة حتى تمضى لحالها فى سلام هكذا ببساطة ولمجرد أنى أردت ذلك، مشاعرى نحوها كانت حقيقية تنبع من نفسى بصدق لا زيف فيه ولا ادعاء!

أكتفى برؤيتها من بعيد، لكم تغيرت! أزعجنى كمية المساحيق التى أصبحت تضعها على وجهها! لم تكن فى حاجة إلى هذه الألوان

على جفنيها وشفتيها، فهى أجمل بدونها.

تكوينى نظرة الحزن التى أصبحت تطل من عينيها، لم أعد أر عذوبة ابتسامتها وهى تشرق على وجهها، أعلم أننى السبب فى انطفائها، لقد خنقت الفرحة فى قلبينا معاً.

كنت أشفق عليها برغم صدودها وعنادها، وأنا أشاهد هذا الألق الذى كان يشع منها يذبل ويغيب، الحق أن كلينا كان يذبل كأن شيئاً بداخلنا قد مات..

مازلت أحبها وأتعذب وأنا أسرح مع أغانى أم كلثوم ونجاة وأهيم سابحاً فى عالمها، حزيناً إلى أقصى درجات اليأس، لا أكاد أصدق أنى فقدتها إلى الأبد، وأن لحظة غضب عابرة قد أحدثت هذا الأثر المدمر لكل ما كان بيننا من مشاعر، لحظة غضب أدفع ثمنها فادحاً إلى هذا الحد من العذاب والحزن! لحظة مجنونة عبثية أقامت بيننا من الحواجز ما لم يمكننى تجاوزه؟!

إن النهاية المشئومة لفات الميعاد، التى غنتها أم كلثوم فى عام النكسة، كانت قدراً يطاردنى ويحدد علاقتى بها حتى قبل أن تبدأ، تفيد بإيه يا ندم وتعمل إيه يا عتاب؟ طالت ليالى الألم واتفرقوا الأحباب، سمعناها معاً فى أول أيامى معها، لترسم لنا طريق الفراق منذ البداية!

***

كنت أراها مع هذا الشاب الغثيث الذى كان السبب فى الفرقة بيننا بشكل مستمر، استسلمت تماماً لصحبته، كان هذا أشد على نفسى من الهجر والقطيعة، كانا يتمشيان معاً حول الحديقة الكبيرة وهما يتكلمان، لا أعرف أى نوع من الحديث كان يدور بينهما؟ لم تكن تتكلم مع أى شاب سواه، فيمَ يكلمها؟ ولماذا هو دون غيره؟ ما الذى يعجبها فيه؟ هل حاصرها بإلحاحه وأحرجها، خدعها بإدعاء المروءة والنبل، هل وضع عينيه عليها منذ أن رآها أول مرة فى سكشنهم وقرر اصطيادها؟ تودد إليها بهذه الأساليب المعروفة لدى الحثالة، وهى الغبية استجابت له!

كيف يفكر فيها، وكيف يراها؟ هل يشتهيها؟ ينظر إلى جسدها وهى تتحرك أمامه فى المعمل، أطمئن من هذه الناحية وأهدأ، فنحن نلبس البالطو الأبيض فوق ملابسنا عندما نكون فى سكاشن العملى، يغطى أجساد الفتيات تماماً فلا يُرى منها شىء، ولا تظهر تضاريسهن الجميلة وهن ينحنين لينظرن فى الميكروسكوب أو يفحصن العينات.

لكن هذا لا يمنع أن يختلس النظر بعد السكشن، بعد أن تخلع البالطو، وهى تمشى معه "الحمقاء" صدرها وساقيها وأردافها وكل تفاصيل جسدها الرشيق فى متناول عينيه، اللعنة.. هل يمكن أن يكون هذا الشاب مثل عادل عصير ومن نوعيته اللئيمة؟! هل يخفى تحت مظهره الهادئ المستكين رغباته الخبيثة.. فيها؟!

أتأجج غضباً ويكوينى الغيظ، هل كنت أنا من دفع بها إليه؟ هل كنت أنا السبب فى نجاح مسعاه لصداقتها، كما كنت السبب فى فشل صديقى! هل عاقبنى الله من أجل ما فعلته بسامى؟ يا للجحيم..

يتسلل إلى نفسى شعور جديد، لا أحبه، أستنكره، لكنه يقوى ويشتد ولم يعد بمقدورى السيطرة عليه! مزيج من الحقد والاحتقار! أحقد عليه وأحتقرها!!

حكايات عادل عن الفتيات وعلاقاته معهن فى الكلية، كانت بالنسبة لى مفزعة وصادمة! فهو على علاقة بعدة فتيات وكلها علاقات حسب كلامه غير بريئة، كنت أراه بالفعل مع هؤلاء الفتيات، كل واحدة على حدة، يجالس إحداهن فى الكافتيريا، ويتمشى مع أخرى أو يقف يضحك مع غيرها، كلهن فتيات فقيرات المظهر وغير جميلات، لكن مثله لم يكن يعبأ لا بالجمال ولا بالأناقة، يهتم بشىء واحد فقط! الغريزة.. ومعالم الأنوثة فى جسد كل واحدة منهن! كان يستخدم كل وسائله، ثراءه وشعره الأصفر وعينيه الملونتين وأسلوبه المرح فى الكلام وضحكه ونكاته فى خداعهن والإيقاع بهن!!

ما يحكيه عما يفعله معهن كان دنيئاً ومقززاً، بعد العصر قرب نهاية اليوم عندما تخلو الكلية وتهدأ حركة الطلبة بها، يذهب مع الفتاة منهن أو تذهب هى معه إلى الأماكن المتطرفة البعيدة، وهو يحفظ هذه الأماكن ويعرفها تماماً، وهناك ينفرد بها لدقائق!

يحكى لنا أنا وعبد الله وسامى وهو يضحك متباهياً، عن جسم كل فتاة منهن وملمس المناطق المثيرة فيه وكيف تبدو عندما...، لكنى فى إحدى المرات نهرته وطلبت منه أن يتوقف عن هذا الحديث، كنت قد ضقت ذرعاً به وبعبثه وتفاهته! فلم يعد بعدها يتكلم معى..

يحيرنى ويصدمنى تصرف هؤلاء الفتيات وسلوكهن، ما الذى يدفعهن لهذه التصرفات المشينة؟ لماذا تعبث البنت منهن مع شاب من أمثال عادل؟ ما الذى ستجنيه؟ أعرف أنه يشترى لهن بعض الهدايا الرخيصة، لكنها لا تساوى ذرة مما يحصل عليه منهن! هل الغريزة فقط هى السبب؟ أم أن هناك دوافع نفسية؟ مشاكل أو مآسٍ عائلية، طلاق وانفصال والدين! قسوة زوج أم أو زوجة أب أو أخ أكبر تخلق لديها رغبة فى الانتقام، من ظروفها ومن أهلها وعائلتها ومن نفسها أيضاً، بتلويث هؤلاء كلهم! حسب كلامه كل واحدة منهن خلفها مأساة، وهو يستغل هذا ببراعة.. وبلا ضمير!

الحصول على اللذة ليس هو السبب أو الدافع الوحيد.. وأى لذة فى أن يقبلها شاب مثل عصير ويمسك جسدها ويعبث به؟!

كنت عندما أرى الفتاة منهن أتعجب وأشعر بالحرج عندما أستعيد ما قاله عن جسمها وعن أسرارها الحميمة! هذا لو كان صادقاً ولم يختلق هذه الروايات أو يبالغ فيها، أنظر إليها وهى تتكلم وتتصرف باحترام وطبيعية دون أن يبدو عليها لمحة واحدة تدل على سلوكها

الخفى وأستغرب!! وتُلح على عقلى فكرة أنها فى يوم من الأيام سوف تتزوج رجلاً.. تخدعه منذ الآن، وتخونه من قبل أن تعرفه!

علق عبد الله بلامبالاة ونحن نتحدث عن هذا الموضوع.

– عادل كذاب وابن كلب، أنا شخصياً لا أصدق حرفاً من كلامه!

***

كنت حتى هذا الوقت مازلت أتلمس فرصة لأكلم ياسمين، فرصة واحدة لا غير، أضع بها نهاية لهذا الوضع الشاذ وأحدد معالم علاقتى بها.

لم أكن أريد سوى أن أراها لمرة واحدة، مرة واحدة فقط بمفردها، لأتقدم منها وأكلمها دون أن يسمعنا أحد، دون أن يعرف أحد ما دار بيننا، سأستطيع ساعتها أن أعرف على الفور حقيقة مشاعرها، أصبحنا ونحن فى السنة الثالثة لنا بالكلية مختلفين عما كناه ونحن فى سنة أولى، اندمجنا فى الحياة الجامعية ونضجت شخصياتنا.

لكن هذه الفرصة لم تأتِ، لم تأتِ، لم تأتِ، أبداً، أبداً..؟!

كنت أترقبها فى كل مكان أتوقع وجودها فيه، باب الكلية، مدخل المدرج، طرقة المعمل أثناء سكاشن العملى، أتسكع بعد أن أترك أصدقائى، كانت تأتى وأراها من مكانى، ولكن.. دائما وبشكل عنيد وشاذ وغير طبيعى لا تكون بمفردها؟!

كنا نلتقى أحياناً وجهاً لوجه فى ممرات الكلية وطرقاتها أو على السلالم، فجأة أجدها أمامى، وهى وسط صديقاتها، لم أرها بمفردها

أبداً! فتأخذنى الرجفة للحظة وأتمنى لو يرجع زمن الوصل بيننا، لكن كان كل منا ينظر إلى الآخر شزراً ويمضى فى طريقه، كأن بيننا ثأراً قديماً لا يمكن لنا أن نتجاوزه أو ننساه!

كنت أُظهر لها الإعراض والتجاهل وأدعى أمام الجميع أنى نسيتها، وأنها لم تكن سوى نزوة عابرة مضت لحالها وانتهت!

ومشاعرى ناحيتها تتأرجح بين العشق المكتوم وأنا بعيد عنها وعن الكلية، فى البيت أو وأنا أذاكر مع أصدقائى ليلاً.

وبين الشعور المقيت بالاحتقار عندما أراها مع صاحبها البائس، وبين الكراهية وهى مع صديقاتها! نعم الشعور بالكراهية كان يتسلل إلى نفسى! تسلل الحيات السوداء فى الرمال الناعمة، فقد عذبتنى عذاباً نغص علىَّ حياتى، وعكر أزهى سنوات شبابى بحزن ثقيل لم يخطر ببالى فى يوم من الأيام! هل دخلت حياتى فقط لأتعذب؟ لأعرف معنى الحسرة والندم، لأجرب الحرمان..

لحظة حب معها تساوى فى نظرى حياة بأكملها!!

أريدها، أريدهاااااااا.. أكثر من أى شىء فى العالم! ولا أستطيع..

لم أكن أراها فى الأحلام برغم تفكيرى فيها وبرغم أنى كنت أتمنى ذلك، لكن فى أحد تلك الأيام، حلمت أنى أجلس معها على شاطئ البحر، الوقت قبل الغروب والسماء ملونة بالحمرة، لا أحد حولنا، خلفنا تل صغير من الرمال، تجلس فى مواجهتى والهواء يداعب شعرها وأنا أنظر إليها بوله العاشق، قلت لها وحشتينى، ابتسمت

بعذوبة ثم قامت فجأة وسارت خلف التل، ظللت فى مكانى أنتظرها، لكنى رأيت ذئباً ضخماً أسود اللون يأتى جرياً، قفز فوقى عابراً التل ثم سمعتها تصرخ مستغيثة، قمت كالمجنون وجريت نحوها متلهفاً، فرأيت الذئب جاثماً عليها.. يفترسها ويمزقها بأنيابه، ألقيت بنفسى عليه ولففت ذراعى على عنقه وشددت بكل قوتى على رقبته لأسحبه بعيداً عنها، لكنى لم أستطع، أخذت أضربه وأصرخ حتى قمت مفزوعاً غارقاً فى كآبة الكابوس وسوداويته.

17

يعتقدون أننى على علاقة حب بفريدة، أسمع التلميحات وأرى نظرات العيون الماكرة وهى تبتسم، يا لهم من حمقى! أضحك فى سرى وأصمت..

فريدة صديقى وليست صديقتى، أعتبرها واحد صاحبى مثل عبد الله وسامى وبقية الأصدقاء، برغم كل ما لديها من اختلافات لطيفة عنهم.

الفتاة الوحيد التى صادقتها صداقة حقيقية بعيدة عن الزمالة المعتادة مع الفتيات، أو علاقات الغرام التى يمكن أن يندفع إليها أى شاب، يجد فتاة مثلها بجواره.

بالطبع هى جميلة وفائقة الجمال أيضاً، وأنوثتها طاغية تذيب الصخور الراسية، لكنها لا تحب هذه الأنوثة وترفضها تقريباً، تعتبرها نقطة ضعف بالنسبة لها كإنسان، تحب أن تكون الأقوى لا الأجمل!
برغم الجمال والأنوثة فى داخلها شخصية رجل! جامدة المشاعر تفكر بعقلها لا بعواطفها، بل لا تقيم للعاطفة وزناً فى حسابات حياتها وعلاقاتها مع الآخرين، لكنها وبرغم هذا تتباهى بجمالها وتعتز به، وتفتخر بتميزها عن غيرها من الفتيات!
كأن هناك صراعاً ما فى نفسها بين الأنوثة والرجولة، كأنها ترغب فى الحصول على مميزات الجنسين معاً، وهو ما يجعلها متناقضة الشخصية وغير متصالحة مع ذاتها..
لكن صداقتها كانت ممتعة فى نهاية الأمر بالنسبة لى، فهى صديقة جيدة، قوية الشخصية والإرادة وذات شهامة لمن يعرفها عن قرب، لكنها لا تصلح حبيبة.. معى أنا على الأقل! فى هذه المنطقة، منطقة العاطفة، لا يوجد أى توافق بيننا، مشاعرى ناحيتها محايدة، ربما بسبب تجربتى مع ياسمين، ربما لأن حبى لها مازال حياً برغم انقطاع صلتى بها، بقيت منه جذوة صغيرة تنتظر أقل هبة ريح لتشتعل من جديد! لا أعرف كيف كان سيصبح حالى معها! لو أنى عرفتها قبل ياسمين؟ لو أنى بدأت معها وأنا خالى البال والقلب؟
مع توثق صداقتى بها، بدأت تحكى لى عن حياتها، هى بطبعها لا تحب الكلام عن حياتها الشخصية ولا أن يطلع أحد على أسرارها

ومأساتها الأسرية، كانت تفتح لى قلبها ونحن نتمشى معاً فى أرجاء الكلية، أو ونحن نجلس فى الكافتيريا لنحتسى القهوة التى تشربها بشراهة، على عكس غيرها من الفتيات.

كانت تغير الموضوع بسرعة خاطفة إذا حضر أصدقاؤنا ليشاركونا الجلسة، كانت تحب أن تحكى لى أنا دون سواى، وهى تؤكد بين فترة وأخرى كأنها تحذرنى إنها لا تحب أن يعرف أحد شيئاً عن أسرارها العائلية!

ماتت أمها فى حادث وهى فى عز شبابها، قبل أن تصل لمنتصف الثلاثينيات من عمرها، كانت جميلة، أجمل منى بكثير!

– ربما كانت أجمل منك شيئاً ما، لكن صعب أن تكون أجمل منك بكثير.

أداعبها برفق لأخفف سيل الحزن المطل من عينيها، تبتسم ابتسامة شاحبة وتكمل.

لديها أخ وأخت هى أكبرهما، كانت فى نحو العاشرة عندما تزلزلت حياتها وتلقت صدمة العمر بموت أمها المفاجئ، برغم أن والدها ظل فى المستشفى لعدة أسابيع من أثر الحادث، فإنها لم تغفر له أبداً أنه تسبب فى موت أمها!

– كيف؟ لا تظلميه.. الحوادث قدر أكبر من الإنسان، والموت مصير لا مهرب منه عندما يأتى.

– كان يقود السيارة وهو المسئول!

ترد بعناد لا يتزعزع.

عانى أبوها بعد الحادثة وحزن على زوجته حزناً هائلاً، حتى أصيب بمرض السكر، لكنه تزوج بعد وفاتها بخمس سنوات، وهو الأمر الثانى الذى لا تغفره له ولا تستطيع أن تتسامح معه!

– كان مازال شاباً ومن حقه أن يتزوج مرة أخرى.

– هل تعرف أنه يشبهك!

مفاجأة ليست على البال..

– يشبهنى أنا؟!

– ليس فى الشكل فهو أكثر وسامة منك، أبى يبدو مثل نجوم السينما.

– حصل لنا الشرف!

– لكن شخصيتك وطباعك قريبة منه إلى حد كبير، كما أنه صعيدى مثلك!

– لهذا السبب تحبيننى..

أشاكسها.

– يا غلس.. أنا لا أحب أحداً.

– مثلى تماماً.

قالت برقة وحنان غير مألوفين لديها، كأنها تواسينى.

– أنت مسكين، غارق فى الحب!

هل أخبرها أحد؟ لا أحب لهذه السيرة أن تلوكها الألسن، ولا أن يتحدثوا عنها خلف ظهرى، أعرف أن أصدقائى ليسوا بهذه الخسة، كما أننا لا نتحدث فى هذه الأمور أمام الفتيات، بل فيما بيننا فقط، لكن ربما عرفن بوسائلهن الخاصة وأحاديث النميمة التى تدور بينهن!

لا أحب أن أكون موضع سخريتهن باعتبارى فاشلاً فى الحب! وأن الفتاة التى أحببتها عاملتنى بازدراء وأعرضت عنى، وضع يجلب إما الاستهزاء أو الشفقة، يا للبؤس..

نظرت فى عينيها والتساؤل الممتزج بالغضب يلوح فى وجهى، فهمت بذكائها ما دار فى عقلى، فقالت ببساطة.

– باين عليك، فى عينيك وفى الحزن الذى يغطيك دائماً، حتى وأنت تضحك! يا ترى من هى؟ بنت الجيران مثلاً؟

– حب وبنت الجيران، هذا شغل أفلام سينما وعبط.. كلام فارغ!

– هاهاهاها

– عارفة.. أحياناً أحلم بكِ.

ردت بحدة وقد تغير وجهها.

– إنت قليل الأدب!

– الله.. أحلام بريئة، أنتِ فكرك راح لبعيد!

– يا سلام..

– بجد.. أحلام بريئة عادية..

نظرت لى بشك وسكتت.

منذ أن بلغت الرابعة عشرة وهى تتعرض لمضايقات ومعاكسات الشبان والرجال! الخروج إلى الشارع بمفردها كان بمثابة جحيم، صدمة أخرى من صدمات حياتها، قليل من الرجال المحترم فى هذه البلد! أغلبية الناس بلا إنسانية ولا رحمة، أنت لا يمكن أن تتصور ما تتعرض له البنت الصغيرة لو كانت جميلة فى الشارع؟!

– ليس إلى هذا الحد.

ردت بأسى.

– أنت كرجل لا تعرف هذا الشعور، شىء مهين وبشع.

تذكرت فى هذه اللحظة كيف كنت أنظر إليها وإلى جسمها ونحن فى بداية سنة أولى، فشعرت بالخجل.. لكنى رددت عليها قائلاً.

– ربما هذا من رعاع الطبقة الدنيا، الحثالة والصيع..

قالت بهدوء كأنها تقرر أمراً واقعاً!

– الرجال المحترمون أصحاب السيارات الفخمة، يتوقفون بسياراتهم ويعاكسون البنت بأقذر كلام وهم يدعونها لتركب معهم؟!!

– أعوذ بالله..

حمدت الله فى سرى على نعمة الرجولة والذكورة التى جنبتنا هذه الأهوال!

ونحن نقترب من امتحانات نهاية العام، وقعت حادثة مؤسفة أثارت سخرية البعض واستهزاء آخرين، لكنها بالنسبة لى كانت محزنة!

أحد الأصدقاء الثلاثة رفاق أتوبيس الكلية فى سنة أولى، حاول الانتحار، ابتلع شريطين أسبرين قبل أن ينام على أمل ألا يصحو من نومه أبداً.

شاب دمث الأخلاق قليل الكلام، هادئ الطباع، من عائلة محترمة، لكنه قليل الحظ من الوسامة، له جسد متين البنيان متوسط الطول يميل بعض الشىء للبدانة، وملامحه غليظة إلى حد ما، لكن مظهره العام محترم وتبدو عليه آثار النعمة.

كان يحب منذ الطفولة فتاة تسكن فى العمارة المجاورة له، لعبا معاً على رصيف شارعهما مع أولاد الجيران الآخرين طوال سنوات المدرسة الابتدائية، ومع وصولهما لسن الشباب انقطع اللعب فى الشارع، لكنه ظل يفكر فيها ويسعد عندما يقابلها مصادفة، ويدبر بعض الحيل حتى يراها ويكلمها، وهو يعتقد أنها تتجاوب معه وتحبه كما يحبها!

فى بعض الأحيان عندما يغلبه الشوق كان يذهب إلى كليتها، ويخترع الحجج ليبرر زيارته لها، يحرص على أن يعرف جدول محاضراتها ومواعيدها فى بداية كل سنة، ويذهب لينتظرها وهو

متلهف على رؤيتها، وهى ترحب به عندما تراه وتترك زملاءها لتذهب إليه، يمتد بينهما الكلام، السعادة تبدو عليها، تحدثه والابتسامة تعلو وجهها، لم يكن لديه ذرة شك أنها تبادله العاطفة.. وتحبه كما يعشقها.

فى نهاية ثالث سنوات الجامعة أحس أن الوقت قد أصبح مناسباً ليتقدم لخطبتها، يثبت لها صدق نواياه وجديته من ناحية، ويقطع الطريق أمام الآخرين ويسبقهم من ناحية أخرى، فقد بلغه أن الخُطاب بدأوا يتقدمون لأبيها.

لم يكن لديه أى شك أنها ستفرح وتطير من السعادة وهو يخبرها إنه يريد أن يخطبها، لكنه فوجئ بها تتجهم؟! كأنه طلب منها أمراً معيباً! ردت عليه بعصبية وبلهجة متعالية، إنها لا تفكر فى هذا الموضوع الآن! ثم تلطفت بعض الشىء وقالت له.

– أنت بالنسبة لى، صديق الطفولة وأعتبرك زى أخويا لا أكثر؟!

كان يحكى لنا عندما زرناه فى البيت والدموع فى عينيه، بعد أن قضى يومين فى المستشفى وهو فى شبه غيبوبة، رجع إلى بيته لينام فى السرير محطماً يائساً وهو مازال فى حالة إعياء بسبب جرعة الأسبرين.

لم أكن أتصور أنه رقيق المشاعر إلى هذا الحد، الإقدام على الانتحار من أجل سبب كهذا؟! أن يفقد حياته ويتخلص منها، ويتسبب لأهله فى فضيحة، من أجل فتاة لم تحبه يوماً! فهذا جنون!

ربما ليس الحب ولكن الصدمة وحجم الإهانة التى تلقاها، كان يردد وهو نصف واعٍ، زى أخوها.. زى أخوها، بعد كل هذه السنين!

برغم مأساوية ما حدث له وبرغم إشفاقى عليه، بدا الأمر مضحكاً وساخراً كالكوميديا السوداء، كدت أضحك وأنا أراه على تلك الحالة، لكنى ضغطت على أسنانى ولمحت بقية أصدقائنا فى نفس الموقف، نتصنع الجدية ونقاوم أن ينفلت منا الضحك، الشفاه مضغوطة بقوة والأنفاس مكتومة بينما العيون تبتسم!

عندما نزلنا من بيته أنا ومجموعة الأصدقاء، تحدثوا بتهكم عنه وعن سطحيته، بشكل أو بآخر كان قد سقط من نظرنا، وفى النهاية لم نتمالك أنفسنا فضحكنا..

***

فى امتحانات نهاية هذا العام، حدثت واقعة شاذة فى تاريخ دفعتنا وتاريخ الكلية بأسرها.

تسلمنا ورقة الأسئلة فى امتحان الكيمياء شبه بيضاء، مجرد خطوط باهتة مكتوبة بخط اليد لا يمكن قراءتها! المعتاد أن ورقة الأسئلة تأتى مطبوعة وواضحة، أما هذه فمجرد ورقة بيضاء تم تصويرها باستعجال على ماكينة تصوير رديئة!

حدثت ضجة بين الطلبة، فلم يكن بالإمكان قراءة سؤال واحد! ثم سمعنا صوت أحد أساتذة الكلية عبر الميكروفون يطالبنا بالهدوء،

ويقول إنهم سوف يمنحوننا عشر دقائق إضافية لقراءة الأسئلة بالميكروفون، ثم بدأ فى إملاء الأسئلة..

بالنسبة لى كان الامتحان عادياً والأسئلة فى حدود المعقول برغم غرابة الموقف، بدأت فى التركيز والإجابة، لكن الضجة حولى لم تهدأ، الكثير من الطلبة والطالبات أغلقوا كراسة الإجابة بعنف وجلسوا بعد أن جمعوا أقلامهم ومساطرهم رافضين الإجابة!

فى هذا الوقت أخذ أساتذة قسم الكيمياء فى المرور على الطلاب لمحاولة تهدئتهم، اقتربت منى دكتورة متقدمة فى السن وأحد كبار أساتذة القسم، وكان يبدو عليها الإرهاق كأنها لم تنم طوال الليل، سألتنى بهدوء وبنبرة قلقة عن مدى صعوبة الامتحان، أجبتها بأن الامتحان معقول وليس صعباً، هزت رأسها بارتياح ثم سألتنى مرة أخرى وبلهجة أمومية مشجعة، هل يوجد أى سؤال غير مفهوم بالنسبة لك؟ قلت لها، شكراً يا دكتورة، جميع الأسئلة مفهومة وواضحة، قالت بحنو، ربنا يوفقك.

تركتنى ومضت بينما الخيمة الكبيرة تعج بغضب مكتوم، ثم بدأت موجة من الاحتجاج والزعيق تسرى بين الطلبة، وأخذت بعض الطالبات فى البكاء! حتى هذه اللحظة لم أفهم سبب هذا الاعتراض ولا سبب البكاء؟!

لم يلبث صوت الميكروفون أن ارتفع مرة أخرى، يسمح لمن يريد الخروج من الطلبة أن يسلم ورقة إجابته ويخرج قبل مرور نصف

الوقت كما هو معتاد، أكثر من نصف طلبة وطالبات الدفعة قاموا على الفور وغادروا الامتحان، وبعضهم فى حالة انهيار، وأنا أتطلع إليهم مستغرباً تصرفهم واعتراضهم! ما المشكلة فى سوء طباعة ورقة الأسئلة؟ الأمر لا يستدعى.

لكن الحقيقة بدأت تتضح وبسرعة بعد خروجنا من الامتحان، اكتشفت من الأقوال الغاضبة وانفعال الطلبة وحالة التوتر التى سادت الدفعة، أن الامتحان قد تسرب؟! ليس سؤالاً أو اثنين وإنما الامتحان كله ووصل لنصف طلبة الدفعة؟

وصل الخبر إلى مسئولى الكلية فى منتصف الليل، فحضروا وعقدوا اجتماعاً عاجلاً مع أساتذة قسم الكيمياء وتأكدوا من صحة الإشاعة، كانت ورقة الأسئلة المسربة تماثل تلك المطبوعة داخل الأظرف المختومة! أعادوا وضع أسئلة الامتحان من جديد وانتهوا من تصويرها فى السادسة صباحاً..

عرفنا بعد أيام التفاصيل المخزية، هذه الفتاة الخمرية ذات الشعر الأسود الطويل والعينين السوداوين الواسعتين، صاحبة الجسد الممشوق الطويلة القامة، إحدى فاتنات الدفعة، والتى تبدو أكبر سناً منا، كأنها فى منتصف العشرينيات من عمرها، حصلت على الأسئلة من أستاذ المادة والمسئول عن امتحان سنة ثانية فى القسم! فأعطته لأصدقائها ولم يلبث الامتحان أن انتقل بسرعة البرق إلى أصدقاء آخرون حتى وصل لنصف الدفعة!

البعض قال إنها قضت معه ساعة فى غرفة مكتبه، وآخرين أكدوا أنها ذهبت إليه فى البيت بعد أن أعطاها عنوانه!

– من أجل امتحان؟ مجرد امتحان تنحط إلى هذا المستوى وتدفع هذا الثمن الفادح؟

– هى شرموطة وصايعة من الأصل، لا يفرق معها امتحان ولا غيره.

– أنا كنت لا أرتاح لها برغم جمالها منذ أن كنا فى سنة أولى، فيها شىء غلط وغير مريح!

– بيئة وسخة بعيد عنك، نصف الدفعة رسبوا فى المادة بسببها.

– الحمد لله أننا كنا فى النصف الآخر.. هاهاهاها.

– هاهاهاها..

19

فى اليوم الأول لسنة ثالثة عرفت أن ياسمين قد خُطبت خلال إجازة الصيف! كان الأمل مازال يراودنى فى عودتها بعد أن كبرنا ومرت علينا هذه السنوات، فكرت أثناء أيام الإجازة الطويلة أننا يمكن أن نتجاوز هذا الموقف السخيف ونبدأ من جديد، لكنى تلقيت الصدمة كالحجر الثقيل على رأسى وأنا أدخل مبنى القسم الذى تخصصت فيه.

بالصدفة كان المعمل التابع لقسمنا يجاور قسم المايكروبيلوجى الذى التحقت هى به، القسمان يقعان فى نفس الدور، وبينما أخطو فى الممر الطويل المؤدى للمعمل، وقبل أن أصل للباب وجدتها تقف مع صديقاتها تتلقى التهانى وقد أحطن بها وهن يتقافزن من الفرحة ويصحن!

يااااااه.. من بين كل الفتيات، الوحيدة التى تمت خطبتها، شعرت أن الحظ لا يعاندنى فقط لكنه يسخر منى أيضاً، وبمنتهى القسوة، آخر ما كنت أتوقعه، هكذا.. تبخرت آخر قطرة أمل، بينما كنت أفكر فيها أثناء الصيف، كانت هى..!!

توقفت أتأمل المشهد وحولى زملاء القسم الجدد الذين لم أكن أعرف واحداً منهم، وضجة البدايات تملأ بصخبها حركة الممر المزدحم بطلبة وطالبات القسمين المتجاورين، ركزت نظرى على يدها اليمنى من خلال الفجوات التى تتخلل حركة الأجساد، حتى رأيتها، دبلة الخطوبة وهى تلمع فى أصبعها مع الخاتم الماسى..

التفتت ناحيتى بغتة، تعلقت عيناها بعينى، نظرت إليها بقوة، لم أحب وجهها وهو ملون بالماكياج، تغيرت.. ولم تعد تلك الفتاة التى عرفتها منذ ثلاث سنوات! شعرت أن الحرارة التى خرجت من نظراتى النارية لسعتها، لحظات أشحت بعدها بوجهى عامداً هذه المرة.

فى ستين داهية.. قلت فى نفسى وأنا أجز على أسنانى، لم أر منها إلا المرار والنكد عبر سنتين طويلتين، مقابل عدة أسابيع فقط من السعادة.

اختارت فريدة نفس التخصص الذى اخترته، عرفت ذلك منها بعد أن كتبنا استمارة الرغبات، صاحت بصخبها.

– يووووه.. يعنى سأكون معك فى نفس القسم والمعمل، ده شىء يخنق! ألا تكفى الشلة والكافتيريا.

– هذا من حسن حظك، أن تكونى معى.

– لا يا شيخ..

كانت سعيدة وكنت أنا أيضاً سعيداً بوجودنا معاً فى قسم واحد!

***

دفعت بقشيشاً سخياً لفراش القسم حتى أحصل على دولابين متجاورين لى ولفريدة، كما اتفقت معها، فى مكان متميز من الدواليب التى تركها طلبة الدفعة المتخرجة فى العام الماضى، كنا نحتاج الدولاب لنضع فيه أدوات المعمل الخاصة بنا والبلاطى البيضاء التى نرتديها أثناء السكاشن.

كنت أريد الحصول على دولاب خاص بى أخيراً بعد أن أصبحت من طلبة الفرقة الثالثة، الطلاب الكبار فى الكلية، فطلبة أولى وثانية عادة ما يشترك كل اثنين أو ثلاثة فى دولاب واحد.

لكن فراش القسم لم يجد سوى دولاب واحد فى المكان الذى طلبته، بالقرب من الباب الرئيسى للمعمل وأخبرنى أنه سوف يدبر أمر الحصول على الدولاب الثانى، بعد أن تهدأ ضجة الفترة الأولى من العام الدراسى، تسلمت منه الدولاب نظيفاً خالياً وأسرعت بشراء قفل جديد له ثم نقلت إليه أغراضى كلها من الدولاب القديم.

غضبت فريدة عندما لم تجد لها دولاباً فى هذا المكان المتميز، كان هناك بعض الدواليب الفارغة فى أماكن بعيدة قرب الحمام ولم تعجبها بالطبع، قلت لها.

– سوف أحصل لك على دولاب فى أقرب فرصة.

طوحت شعرها بهزة عنيفة من رأسها فطار فى الهواء، ثم انسدل على ظهرها كسلاسل الذهب.

– أنت الذى يعتمد عليك يغرق!

– الله.. أنا غلطان طيب، اذهبى وابحثى بنفسك، خلينا نشوف شطارتك!

كان هذا الحوار يجرى ما بين المزاح والجد أمام الدولاب وبصوت قد ارتفع بعض الشىء، لاحظت على الفور أن أعين زملائنا الجدد تتطلع إلينا بفضول، وبعضهم يرمقنا مبتسماً أو مستغرباً، فى مزيج من الإعجاب والحسد وربما شىء من الحقد، طبعاً الإعجاب لها والحسد والحقد لى أنا!

أحدهم قال لى بعد ذلك عندما أصبحنا أصدقاء، فى هذه اللحظة ونحن ننظر إليكما كنت على استعداد أن أدفع نصف عمرى لأقف تلك الوقفة مكانك!

بالطبع كنا نعرف هؤلاء الزملاء من خلال محاضرات أولى وثانية حيث يجمع المدرج طلبة الدفعة كلها، لكن لم تكن بينى وبين أى شاب أو فتاة منهم أدنى معرفة شخصية، وكذلك الحال مع فريدة.

نظرت إليهم وفى لمحة نظرت إليها محذراً، ففهمت على الفور وسكتت، ونحن ننزل على السلم أعطيتها نسخة من المفتاح فأخذته وقالت.

– آسفة.

– يا سلام.. ما هذا الأدب الذى حل عليكِ فجأة!

– تعال أعزمك على فنجان قهوة.

***

فوجئت بأحاسيس غريبة تنتابنى وأنا أفتح الدولاب عندما يكون بالطو فريدة به، رائحتها كانت تملأ فراغ الدولاب وتفوح منه، رائحة عطرها ممتزجة برائحة جسدها تتسرب إلى حواسى فتثيرها، أمر غريب!

الرائحة بمفردها لها تأثيرها الخاص بها، يختلف عنها وهى مقترنة بالشخص، أشعر بدفء أنوثتها يدغدغ مشاعرى وأنا أقف أمام الدولاب المفتوح، البالطو المطوى بعناية داخل كيسه البلاستيك يثيرنى بأكثر مما تثيرنى صاحبته ذاتها؟!

بمجرد أن أفتح الدولاب! تقتحمنى الرائحة مقترنة فى عقلى بمفاتن فريدة التى يحتويها البالطو، هل هو الشيطان الذى يوسوس بهذه الأفكار؟ أم تأثير شذا عطرها على العقل الباطن ودغدغته لسراديب اللاوعى!! أياً كان السبب، كنت أفاجأ بنفسى فى هذه الحالة فأندهش!

لماذا أراها فى خيالى دائماً فى صورة لا تختلف عن الواقع فحسب، بل تتناقض معه أيضاً، عندما تأتى تغيب مفاتن الأنثى وتبقى الصداقة، ولا يعود بمقدورى وهى بجانبى أو أمامى التفكير فيها من هذه المنطقة الوعرة..

20

تفرقت شلتنا على التخصصات المتعددة فى الكلية، ولأول مرة منذ دخولنا الكلية أصبحت مواعيدنا مختلفة، لم نعد نتحرك كلنا معاً لندخل سكشن أو محاضرة كما ظللنا نفعل لثلاث سنوات.

عبد الله كان الوحيد الذى رسب للمرة الثانية ولم يصعد معنا للفرقة الثالثة، سوف يتكرر هذا الأمر معه طوال سنوات دراسته فى الكلية حتى أن بعض زملائنا فى دفعة سنة أولى سوف يُدرسون له كمعيدين!! جعله هذا يعانى من الشعور بالإحباط ولأول مرة منذ بدء صداقتنا أراه يتخلى عن بشاشته ومرحه، ويتحول سلوكه ليصبح

عدائياً شيئاً ما تجاهنا جميعاً، المؤسف أنه اختصنى أنا وفريدة بالجانب الأكبر من هذه المشاعر!

عندما قابلنى فى بداية العام، قال لى على الفور.

– صاحبتك اتخطبت!

قالها وهو يضحك وأثر الشماتة فى عينيه!

– عرفت.. ولم أهتم فلم يعد أمرها يعنينى.

– طبعاً يا عم.. وقعت وأنت واقف على رجليك؟

– ما هذا الكلام يا عبد الله؟! ماذا جرى لك؟

نظر لى نظرة غير مريحة قبل أن يقول.

– أنت تغيرت كثيراً، ولم تعد كما عرفتك!

صحت فيه على الفور.

– وأنت أيضاً لابد أن تتغير! كلنا تغيرنا، لم نعد طلبة مستجدين فى سنة أولى.. لابد أن تكبر وتتعامل مع الحياة بجدية..

كدت أقول له، إنه ليس ذنبنا أنك رسبت مرة أخرى، لكنى تراجعت قبل أن أنطقها، كلمة كانت فى منتهى القسوة ولم يكن باستطاعته تحملها دون أن تنتهى صداقتنا.

تجمع شلتنا فى الكافتيريا أصبح خاطفاً لاختلاف مواعيدنا، بدا هو فى تلك الفترة كأنه طائر يحلق خارج السرب غريباً إلى حد ما وفاقد الاتجاه، كنا نتحدث فى معظم الأوقات كما هو معتاد عن المواد التى ندرسها فى أقسام التخصص وطبيعة تلك المواد، ومدى

اختلاف كل قسم عن الآخر، حديث كان عبد الله لا يستطيع أن يشارك فيه، فيصمت ويبدو عليه الضيق وفى بعض الأحيان يتدخل بتعليقات ساخرة يشوبها الغيظ، ولا يلبث أن يتحجج بأى حجة حتى ينصرف ويغادرنا! وفى إحدى المرات استفز كلامه واحدة من الفتيات فردت عليه بحدة، وتقريباً أهانته وهى تنصحه بأن يهتم بمذاكرته بدلاً من تضييع الوقت فى العبث واللعب، لكنه اعتبر كلامها من قبيل المزاح فضحك وشاكسها بتعليقاته!

***

بعد عدة أسابيع من بداية العام الدراسى، كنت أقف مع بعض الأصدقاء الجدد فى الممر المقابل للمعمل، وكنا قد انتهينا لتونا من أحد السكاشن، عندما رأينا رجلاً شاباً فى بداية الثلاثينيات من عمره يدخل إلى الممر، ويبدو عليه أنه يبحث عن شىء ما، اقترب منا وحيانا ثم اختارنى أنا من دونهم ليسألنى عن زميلة لنا اسمها ياسمين!!

رجل أنيق المظهر، تبدو عليه مظاهر الثراء، طويل القامة ممتلئ الجسد لكنه لا يصل إلى درجة البدانة، وجهه أبيض مشرب بحمرة، شعره خفيف فى مقدمة الرأس ينبئ عن صلع قادم، مع تكوينه الجسدى من المؤكد أنه سيتحول خلال بضع سنوات إلى رجل بدين وأصلع، يرتدى بذلة فاخرة بلا رابطة عنق، لمحت الدبلة فى يده اليمنى على الفور.

سألته عن القسم الذى تدرس فيه هذه الزميلة! فقال قسم المايكرو، فأشرت إلى باب المعمل قائلاً، إنه القسم المجاور لنا، سوف ينتهى السكشن عندهم بعد قليل، شكرنا ومضى بخطوات واثقة باتجاه الباب حيث وقف لينتظرها.

غادرت المكان بقلب بارد قد أصابه الجمود ولم يعد لديه طاقة على المزيد من الحزن، قلت لنفسى، إنها ليست من نصيبك.. فلا تعاند القدر واخضع لمشيئته.

***

فى هذه الأثناء، وهذا من غرائب النفس، أخذت أضيق بصحبة فريدة اللصيقة، كنا تقريباً لا نفترق أثناء وجودنا فى الكلية، تجلس بجانبى فى المحاضرات والسكاشن ونحن فى القسم، منعزلين عن زملائنا الآخرين، فلم تكن لنا معرفة بهم، ثم نخرج معاً من المعمل لنذهب إلى جلستنا فى الكافتيريا مع من نجده من شلتنا، وفى نهاية اليوم نمشى إلى محطة الأتوبيس وأظل معها حتى تنزل عند بيتها فى روكسى!

كنت أختنق وأشعر أنى مقيد الحرية، أحتاج لصحبة أقرانى الشبان، نضحك ونمزح بحريتنا ونتكلم بما يخطر على بالنا مستخدمين ما نشاء من ألفاظ وشتائم أحياناً، ونخوض بلا حسابات فى أى موضوع عام أو خاص، أما فى وجود الفتيات فكل كلمة وكل تصرف بل وكل نظرة بحساب، مهما بلغت درجة الصداقة..

بطبيعة الحال كنت أشعر بشكل أو بآخر وبرغم استقلالية شخصية الفتيات فى الجامعة ومساواتهن مع الشبان، أنى مسئول عنها طالما هى معى أو فى صحبتى..

عدد الفتيات فى قسم التخصص أكثر من ضعف عدد الشبان، كنا أقل من عشرين وهن أكثر من أربعين! مع مرور الوقت بدأت حركة التعارف وتكوين صداقات جديدة تأخذ مجراها، كما يحدث فى أى تجمع إنسانى وأخذت الشلل تنشأ بيننا فى القسم، لكنها اتخذت مساراً مختلفاً عما حدث فى سنة أولى، هذه المرة كان هناك شلل للشبان وأخرى للفتيات، لم تتكون شلل مختلطة!

اندمجت فريدة مع مجموعة من الفتيات وأصبحت تجلس بينهن، وبدأت أنا فى التعرف على أصدقاء جدد، لم تقتصر الصداقات الجديدة على قسمنا فقط بل امتدت إلى القسم المجاور لنا أيضاً، خاصة بين فتيات القسمين.

***

فوجئت وأنا أدخل الممر الواسع المؤدى للمعمل قبل موعد المحاضرة الأولى بربع ساعة، بفريدة تقف فى منتصف المسافة بين القسمين.. مع ياسمين!

تمهلت فى خطواتى وأنا أرقب المشهد، كنت قد خلعت النظارة كعادتى عندما أتجاوز باب المبنى الذى يوجد به القسم فى الدور الثانى، رأيتهما تتحدثان بحميمية وتضحكان، فريدة ترتدى بنطلوناً

بيج واسعاً وبلوزة زرقاء وتتألق جمالاً وأناقة، كانت قد توقفت منذ فترة عن ارتداء البنطلونات الضيقة، وحتى بالنسبة للجينز لم تعد ترتديه محبوكاً على ساقيها كما كانت تفعل فى سنة أولى، أما ياسمين فكانت ترتدى فستاناً أصفر غامقاً، ابتسمت وأنا أتقدم منهما، لم أتمالك نفسى من الابتسام، فتاتان كل واحدة منهما تمثل نموذجاً مختلفاً للجمال، المبهر الساطع والهادئ الناعم، يجتمعان معاً ليصنعا لوحة بديعة، لوحة حية تنبض بالمشاعر وبالنسبة لى تحوم حولها التساؤلات ويُصعب تفسير خطوطها وسبر معانيها! لم يكن هناك مفر من اللقاء..

21

كانتا تقفان عند صف النوافذ الزجاجية الطولية الممتد بطول الممر، وهو المكان المعتاد لوقوف الطلبة لشرب الشاى والقهوة وتدخين السجائر.

منذ بداية التحاقنا بالجامعة وتعرفنا على زميلاتنا ومصادقاتهن، لم يكن من عادتنا مصافحة الفتيات عندما نتقابل، نكتفى فقط بإلقاء التحية، لم أصافح ياسمين على مدى الأسابيع التى تعارفنا فيها، لم تلتق كفها بكفى، وحتى فريدة برغم قوة صداقتنا لم أصافحها على مدى السنوات إلا عندما نلتقى بعد العودة من الإجازات الطويلة.

تقدمت منهما وحييتهما تحية الصباح، فردتا فى نفس الوقت، ثم وبلا وعى مددت يدى لياسمين أصافحها وأنا أرحب بها، كفها حارة ورطبة؟! متوترة.. ربما، لكن الغريب أنى وجدتها خشنة الملمس وأصابعها يابسة! على عكس ما كنت أتصور.

ضايقنى مكياجها وأنا أتأملها عن قرب بعد هذه الفترة الطويلة، روج غامق يصبغ شفتيها ولون أزرق على جفنيها وبودرة سوداء ثقيلة على رموشها! وجهها الصافى كان أجمل وأكثر براءة، ما الذى يدعوها للتمرد على براءتها وجمالها الربانى؟!

تصرفت كأنى أتعرف عليها للمرة الأولى، كأننا لم نلتق إلا فى هذه اللحظة، لكن عندما قامت فريدة بالتعارف بيننا أخبرتها على الفور أننا على معرفة منذ سنة أولى، أيام أتوبيس الكلية، قلتها ضاحكاً وأنا أنظر إليهما.

تضرج وجه ياسمين بالحمرة وهى تهز رأسها موافقة على كلامى، وتبتسم قائلة، أيوه.. كان زمان فاكر، يااه.. أول مرة أسمع صوتها منذ سنوات، فاكر.. يا إلهى، لم أنس لحظة واحدة من تلك الأيام، أيامك، أيامى السعيدة معكِ، الأيام التى كان شذا حبك يعطر حياتى، لم أنسها أبداً، حاولت ولم أستطع!

مجرد كلمات قليلة قالتها خطفت بها قلبى مجدداً، صوتها كان دائما يسحرنى ويجذبنى إليها، آآآه.. لماذا تعجلتى وسارعت بإعلان خطوبتك؟ ألم يكن لديك بعض الصبر؟ ألم يكن فى قدرتك

الانتظار.. أم أن العذاب قد كُتب لى على يديك، أنت وحدك تمتلكين مشاعرى، بيدك مفاتيح سعادتى وشقائى ولا حيلة لى فى ذلك، لن أنتحر من أجلك كما فعل صديق أيامنا القديمة، سأكتفى بالتعاسة! قدرى ونصيبى من حبكِ وهيامى بك.

أعرف أنكِ لم تسعى للتعرف على صديقتى ولم تقفى هذه الوقفة معها إلا من أجلى، تريدين أن تعرفى حقيقة ما بيننا وإذا كنا على علاقة حب أم لا؟ أستطيع أن أقرأ مشاعرك وأحس بها، كنت تقفين هنا فى انتظارى، أليس كذلك؟ ليس الحب ما دفعك لكنه الفضول، فقط تريدين أن تعرفى بعد أن أصبح لك رجل وخرجت من دائرة الشد والجذب وحلقتِ فى فضاء بعيد.

سألتها متعمداً نفس السؤال الذى كان آخر الكلام بينى وبينها.

– إزيك، عاملة إيه؟

بحركة لا إرادية حركت يدها اليسرى وخطفت نظرة إلى دبلتها قبل أن تقول.

– الحمد لله كويسة.

تعمدت ألا أقول لها مبروك، كان هذا أكبر من طاقتى، مهما ادعيت اللامبالاة وتظاهرت بالبرود كنت أحترق من الداخل دون أن أسمح للدخان أن ينتشر فى الهواء ويفضحنى، اكتفيت بالحوار القصير الذى دار معها ولزمت الصمت، تاركاً لهما بحر الكلام الممتد أمامهما كفتاتين فى بداية التعارف إلى ما لا نهاية.

ليه تلاوعينى وإنتِ نور عينى، إيه جرى بينك فى الهوى وبينى.
لما حبيتك وانضنى حالى، انعدم نومى وانشغل بالى.
وان شكيت وجدى ينظلم حالى.
ليه تكايدينى كل ما أتكلم.
ليه تحاورينى والفؤاد سلم..
بالصدفة استمعت لأغنية أم كلثوم القديمة الجميلة فى مساء نفس اليوم، ابتسمت فى أسى، يبدو أن حال المحبين الفاشلين لا يتغير بمرور الزمن!

***

اختفت النظرات الغاضبة والإشاحة بالوجه وولى زمنها، أصبحت ألتقيها يومياً تقريباً فى أرجاء المبنى الذى يقع به القسم أو فى الممر أمام المعمل، أحييها تحية الصباح أو أسلم عليها وأسألها عن أحوالها، حوار لا يزيد على بضع كلمات ولا يتجاوز عبارات التحية المتبادلة بين الزملاء، كنت ألمح حرصها على ألا يمتد الكلام بيننا، وتحفظها فى التعامل معى، وكنت أنا من ناحيتى لا أقل عنها حرجاً وتحفظاً!
لكنى كنت أشعر براحة نفسية لزوال حالة العداء والصمت التى دامت بيننا على مدى سنتين طويلتين، وبدأت مع زوال القطيعة تنسحب من تفكيرى وتخرج من مشاعرى التى سيطرت عليها لهذه الفترة الطويلة، لم أعد أفكر فيها ولا أسرح مع خيالها ليلاً أو وأنا

أذاكر، وشعرت أن هيامى بها وما عانيته من وجد لهجرها وجعلنى فى حالة حزن دائم، يتراجع ونفسى تصفو وتهدأ.. لكن تظل فى منطقة مجهولة بالأعماق الخفية مشاعر ما تتحين الفرصة لتعبر عن نفسها.

فى بعض الأحيان عندما أقابلها وفريدة بصحبتى كنت أصمت غالباً وأتركهما يتكلمان، لكنى أجد نفسى قد اقتربت من فريدة لا شعورياً وهى بجوارى حتى أكاد ألمسها، مناورة من مناورات الجسد يقوم بها العقل الباطن، يرسل من خلالها إشارته غير المباشرة ورسائله اللامرئية!!

هل ترين هذه الجميلة الفاتنة؟ إنها أجمل منك أليس كذلك؟ انظرى كيف تسمح لى بالاقتراب منها إلى هذا الحد دون أن تجفل، لا يستطيع أحد أن يقف بجوارها هذه الوقفة سواى! أنا فقط من بين كل شبان الكلية بمن فيهم المعيدون الذى يستطيع، أنا أكثر شبان الكلية وسامة، أنا أكثرهم أناقة، أنا أعظم شاب يخطو على الأرض!! أنا رائع ومستمتع بالحياة، أيامى بعيداً عنكِ كلها فرح وسرور، ليس هناك من هو أكثر سعادة منى، كما ترين الآن بعينيك، أجمل الفتيات يحطن بى ويتوددن إلىَّ؟ انظرى إلى نفسك عندما هجرتنى، لم تجدى سوى أزبل شاب فى الكلية لتصادقيه!!

آآه.. ما أجمل لحظة الجنون! عندما ينطلق العقل متحرراً من قيود المنطق والواقع ليحلق فى آفاق الخيال مزهواً بنفسه، فى تصورات

نرجسية تعلى من قيمة الذات وترفع شأنها فى محاولة للتخلص من هجوم الحزن على النفس، ومن مشاعر الإحباط واليأس وهى تناوش بضراوة لتنهش القلب، ما أجمل تداعيات اللاشعور وهى تتوهج فى العقل لتدافع عن صاحبها وتحميه من الانكسار والشعور المرير بالهزيمة!

آه.. أيها العاشق الفاشل، أنت على أتم استعداد لتركع تحت قدميها لو أشارت إليك، على أتم استعداد أن تترك العالم من أجلها لو أرادت هى.. فقط لو أرادت!!

عادة ما كانت البديهة تسعفنى لأجد سبباً أضحك به مع فريدة، موقف دفاعى آخر، لم أكن أستغلها لأغيظ ياسمين، ففريدة أعز عندى من هذا، وصداقتى لها أكبر من أن تهبط إلى هذا المستوى السطحى الساذج، لكن وبلا أى مبالغة كنت أجد نفسى فى حالة سعادة تصل لحد النشوة، وأنا أقف معهما وأراهما تتكلمان معاً بحيوية ومرح، أفرح بتلك اللحظات وأسعد بها لذاتها بعيداً عن حسابات المشاعر المعقدة، كنت بالفعل سعيداً بصداقتى لفريدة ومتباهياً بها أمام نفسى قبل أى أحد آخر، لكن..

بدأت مع مرور الوقت وانتظامنا فى الدراسة بالقسم عملية فرز طبيعية بين الزملاء، الأصدقاء ينجذبون إلى بعضهم البعض تلقائياً ويبدءون فى الاندماج معاً، تتكون مجموعات صغيرة ما بين ثلاثة إلى خمسة، يجلسون فى المعمل معاً وعادة فى أماكن محددة، حتى أصبح لكل مجموعة مكانها المفضل.

كنا قرب نهاية الترم الأول عندما تكونت شلة القسم التى أصبحت واحداً منهم، ثلاثة أصدقاء بالإضافة لى، من هؤلاء الأصدقاء كان خالد، شاب مهذب مهندم المظهر، ملابسه ليست غالية لكنها متناسقة ومنسجمة الألوان وتنم عن ذوق، له هيئة الفنانين إلى حد كبير، يعطى هذا الانطباع من النظرة الأولى بشعره المهوش بتناسق فوق رأسه، كنت أعرفه لتميزه بين طلبة دفعتنا دون أن تقوم بيننا أى صلة، شاعر المظاهرات الذى ملأ الكلية بنشاطه وقدراته الخطابية فى العام الماضى!

تبينت من كلامه ولغته التى تميل إلى الفصحى أنه مثقف ويقرأ كثيراً، القراءة هى هوايته الأساسية بعكسنا نحن الذين نكتفى بقراءة الكتب الدراسية فقط بالإضافة للجرائد والمجلات، ولا نزيد على ذلك شيئاً! أما الشعر فعشقه الأبدى على حد تعبيره..

لم يكن يحب جلسة الكافتيريا، بل لم يكن يحب المكوث فى الكلية بأسرها فى فترات الاستراحة بين المحاضرات والسكاشن، يخرج ليجلس على مقهى هادئ قريب، بعيداً عن صخب الكلية وضجيج طلبتها، دعانا نحن أصدقاءه الجدد لنشاركه جلسته فى المقهى، تحفظت أنا فى البداية، فلم يكن من عاداتى الجلوس فى المقاهى ولا أحب التردد عليها وأنفر من رائحة الشيشة التى تنبعث منها، كما أننى لم أكن أرغب فى ترك جلستنا العتيدة فى الكافتيريا.

لكننى على كل حال وفقط من أجل الصحبة ذهبت معهم عدة مرات، خالد فنان وصاحب مزاج والشيشة من ضمن هواياته المزاجية، لا يدخن السجائر مكتفياً بالشيشة صديقته الصامتة كما يسميها، على الرغم أنها بالنسبة لى ليست صامتة على الإطلاق بل مزعجة وتصدر صوتاً عالياً منفراً!

***

تامر خطيب ياسمين كان يأتى إلى الكلية مرة أو مرتين فى الأسبوع، يبدو أنه يخاف عليها من زملائها الشبان! أحياناً يصعد إلى القسم لينتظرها فى الممر، وفى معظم الأحيان يقف فى الحديقة الصغيرة المواجهة لمبنى القسم حتى تنزل إليه..

أصبح وجوده بيننا أمراً مألوفاً، يسلم علينا وقد يقف ليتكلم معنا فى بعض الأحيان، عرفنا اسمه وأنه مهندس مدنى يعمل فى شركة مقاولات أو أنه شريك فيها وأحد مالكيها.. شىء من هذا القبيل، لم

أهتم بمعرفة التفاصيل، لكن سيارته البى أم دبليو الحديثة الفخمة كانت مثار تعليقات الطلبة وإعجابهم وبالطبع تقديرهم لصاحبها!

كان أبى قد تعنت معى فى شراء سيارة لى بسبب رسوبى فى سنة أولى، ولم تشفع لى التقديرات التى حصلت عليها بعد ذلك فى جميع المواد، ونجاحى بتفوق فى سنة ثانية، أجل هذا الأمر لبعد التخرج وحصولى على البكالوريوس، كنت أشعر بحرج من صديقى المدرسة، عماد وشريف، وأنا أركب معهما سياريتهما الخاصة فى جميع مشاويرنا ونزهاتنا المسائية التى كنا نجوب فيها القاهرة من شرقها لغربها ومن شمالها لجنوبها، ونحن مستمتعون بليلها الساحر ونيلها الجميل وأهراماتها..

أما طارق فكان له سيارة مشتركة مع أخيه مما سبب لهما الكثير من المشاكل وهما يتنازعان عليها، حدثت بعض هذه الخناقات أمامى، لذلك لم أكن أركب معه هذه السيارة إلا على مضض!

بينما أقف مع خالد فى الممر وأنا أستند على الحافة العريضة لصف النوافذ الزجاجية وأضع عليها كوب الشاى، كنا فى استراحة لمدة عشر دقائق فى منتصف سكشن عملى يمتد لأربع ساعات، خرج قسم مايكرو المجاور لنا فى استراحة مماثلة، مرت بنا ياسمين فسلمت عليها وتحدثنا لثوان عن الأحوال والدراسة قبل أن تكمل طريقها.

– جميلة كالغزال لكنها ستتزوج عجل جاموس!

علق خالد بجدية بينما يتأمل مشيتها وهى تبتعد، ودون أن يبدو عليه أى ملمح للسخرية، أما أنا فسكت متعجباً ولم أرد!

***

تصادف ونحن فى منتصف الترم الثانى أن ذهبنا معاً إلى المقهى دون بقية أصدقائنا، قال لى فجأة ونحن جالسان، بعد أن تحدثنا لبعض الوقت فى موضوعه الأثير، السياسة ومستجداتها وما يُكتب فى الصحف من مقالات ومعلومات كنت أتابعها أنا أيضاً.

– ياسمين الفتاة التى فى قسم مايكرو.. إلى أى حد تعرفها؟

– إلى حد ما، كنت أعرفها فى سنة أولى، لكن لماذا؟

– عندما أراها الآن، بعد أن عرفتك، أشعر أن بينكما شيئاً ما مشتركاً، طبيعتك قريبة إلى حد كبير من طبيعتها، لكما نفس السمت والشخصية وربما طريقة الكلام أيضاً..

– يااااه.. إلى هذا الحد؟!

– نعم، إنكما تتحدثان بنفس الأسلوب تقريباً، أعتقد أنك كنت ستتوافق معها جداً، كنتما ستشكلان ثنائياً رائعاً لو أنك ارتبط بها! لكنها للأسف مخطوبة.. وأنت أيضاً مرتبط!!

– ماذا؟ أنا مرتبط.. هذا غير صحيح.

نظر لى مندهشاً وقال وهو يرفع حاجبيه.

– الدفعة كلها تعرف أنك على علاقة حب بفريدة، فأنتما لا تفترقان تقريباً، فعندما تقع العين على أحدكما يتوقع تلقائياً أن يجد الآخر

بالقرب منه وهو ما يحدث بالفعل! وتأكد هذا عندما دخلتما نفس القسم!

قلت وأنا أضغط على الكلمات.

– أنا وفريدة أصدقاء فقط، وموضوع القسم هذا كان مجرد مصادفة، لم نتفق عليه ولا رتبنا له.

– غريب جداً.. كلامك هذا!

قلت وأنا أضحك.

– ما هو الغريب؟

– ما نراه بأعيننا يقول عكس كلامك.. لم ينس أحد منا ما حدث بينكما أمام الدولاب فى أول يوم لنا بالقسم، كانت تتدلل عليك كما تتدلل الفتاة على أبيها، أو على خطيبها أو على.. أى إنسان عزيز عليها!

– هاهاها هكذا هى طبيعة علاقتى بها، أشاكسها وتشاكسنى دائماً لكن بدون علاقة حب ولا غيره، إنها صديقتى لا أكثر.

– كيف تستطيع أن تكون معها طوال الوقت ثم لا تتحرك مشاعرك؟ أى جبروت هذا يا رجل هاهاها..

– عادى جداً، أتعامل معها كأنها واحد صاحبى.

– واحد صاحبك يا مفترى، يبدو أنك لا تعرف أن هناك الكثيرين يتمنون لو أنها قالت لهم صباح الخير، مجرد صباح الخير!

– بل أعرف هذا تماماً، ولا أهتم.

– لكن كيف عرفت ياسمين فى سنة أولى ثم لم تستمر معها؟ هذا أيضاً غريب!

– هذه حكاية طويلة يا خالد.

– يعنى كان بينكما.. تجاذب أو...

– نعم.

تحمس ولمعت عيناه وصاح قائلاً وهو يضحك.

– أنت بهذا الشكل أسطورة من أساطير الغرام، جمعت بين الغزال الرقيق المرهف والفرس الجامح..

– مجرد أقدار ومصادفات لا أكثر، لا تدع خيالات الشعراء وأوهامهم تشطح بك.

– لكن كيف تركت هذا الغزال الجميل يفلت من مخالبك الشرسة؟!

– وقتها لم يكن لى مخالب على الإطلاق هاهاها...

23

كالعادة كنت متوتراً صباح يوم إعلان نتيجة الترم الأول، برغم اطمئنانى إلى مستوى إجابتى فى الامتحانات.

سمعت جلبة وصياح وأنا أصعد السلم كأن هناك مشاجرة فى الأعلى، نتائج الأقسام فى الفرقة الثالثة والرابعة تُعلق فى لوحة الإعلانات عند مدخل كل قسم، أسرعت بالصعود وقد زاد توترى،

المشهد الذى رأيته كان عبثياً، بقع دماء على الأرض، تجمع لعدد من طلبة القسم ومعهم بعض المعيدين، بينما الفراشون يقفون عند لوحة الإعلانات التى تحطمت واجهتها الزجاجية.. كأنهم يحرسونها!

أحد زملائنا وهو شاب نحيف يقف مستنداً على الحائط ويده اليمنى مجروحة وتنزف منها الدماء! رسب فى مادتين فحطم زجاج لوحة الإعلانات ومد يده منتزعاً كشف النتيجة ومزق الصفحة وألقاها على الأرض!

همجية وأفعال شوارع منحطة، أنتم عار على الجامعة! صاح أحد أساتذة القسم موجهاً كلامه لنا جميعاً بمجرد أن وصل قادماً من مكتبه، ثم زعق فى زميلنا بحدة كأنه على وشك أن يفترسه، طالب خائب وبليد وكمان قليل الأدب والتربية.. وأمره أن يسلمه الكارنيه الجامعى، وقال وهو يضعه فى جيب الجاكت، حسابك معنا سيكون عسيراً؟!

طلب من المعيدين الذين كانوا يمسكون بكشف النتيجة الممزق إلى ثلاث قطع، أن يلصقوه بشريط لاصق ثم يضعوه مجدداً فى مكانه.

وقفت مع بقية الزملاء منتظراً عودة المعيدين بالنتيجة وقد ساءنى الموقف، لقد شتمنا الدكتور جميعاً وهو منفعل بسبب تصرف أحمق لأحد طلبة القسم!

ظهرت على وجه زميلنا هذا بعد أن هدأ انفعاله وزالت عنه سورة الغضب، ملامح الخجل كأنه ندم بعد فوات الأوان على عصبيته

واندفاعه، وبدأ وهم يأخذونه إلى العيادة يحاول تبرير تصرفه والاعتذار عنه بكلمات بلهاء وعبارات غير مترابطة!

لحظة غضب تعيسة سوف يدفع ثمنها غالياً، كم هى قاسية تلك اللحظة التى تباغت الإنسان من حيث لا يتوقع وتترك فى حياته أثراً لا يُنسى! ولا يمكن محوه بسهولة.

ظللنا لمدة يومين أو ثلاثة نتعرض للتهزىء واللوم من أساتذتنا فى القسم، ونتلقى دروساً قبل بداية كل محاضرة عن أخلاقيات الجامعة، نتعرف خلالها صاغرين على الفارق بين سلوك الإنسان الجامعى وسلوك العربجية والجهلة وأولاد الشوارع! برغم أن زميلنا صاحب الواقعة لم يكن حاضراً معنا!

***

غابت فريدة ليومين متتاليين ولم يكن هذا من طباعها، فى البداية قلت لنفسى لعلها انشغلت بشىء ما أو أصيبت بنزلة برد، لكن عندما لم تأت فى اليوم الثالث أيضاً بدأت أشعر بالقلق عليها، لم يكن بإمكانى الاتصال بها بأى وسيلة، لم يكن أمامى إلا أن أسأل فتيات الشلة لعلهن يعرفن أخبارها، لكنى قبل أن أفعل عرفت منهن أنها وقعت وهى تصعد سلم مدخل بيتها وكسرت ساقها..

تألمت.. وأحزننى الخبر جداً، ظهر جزعى جلياً أمام الفتيات، لكنهن ضحكن وهن يخبرننى أن الأمر بسيط، شرخ فى القدم لكنه احتاج

لتجبيس الساق حتى الركبة لضمان سلامة التئام العظم وسرعته، لمدة أسبوعين كاملين لن تتحرك خلالهما من البيت!

رجلها المسكينة الجميلة فى الجبس الآن! أشفقت عليها وأنا أتخيلها وهى تمشى وساقها فى جبيرة الجبس! سألت الفتيات.

– ساقها اليمنى أم اليسرى؟

ضحكن ثم نظرن لبعضهن مبتسمات، وقالت واحدة منهن مداعبة.

– وتفرق معك فى إيه؟ إن كانت اليمنى أو اليسرى؟

نظرت إليهن بعتاب، ثم قلت وأنا ابتسم لأرد لهن مداعبتهن بعشم الصداقة الطويلة.

– أبداً مجرد سؤال، يعنى لو واحدة منكن وقعت وانكسرت ساقها أو رقبتها، كنت سأسأل عليها أيضاً!

انهلن علىَّ من كل جانب..

يا ساتر على كلامك، فأل الله ولا فألك، إن شاء الله إحنا نسأل عليك وإنت فى المستشفى..

هاهاهاها.. هاهاهاها

***

أحدث غيابها فراغاً كبيراً، افتقدت صحبتها فى المعمل وفى الكافتيريا، وفى مشوار العودة إلى البيت، كأن هناك شيئاً ناقصاً لا يكتمل إلا بوجودها! بدت الكلية موحشة بدونها..

بعدما مر أسبوع استوقفتنى ياسمين وسألتنى عنها، أبدت أسفها عندما أخبرتها، وطلبت منى أن أبلغها سلامها وتمنياتها بالشفاء، فقلت لها على الفور، عندما ترجع أبلغيها بنفسك، هل تعتقدين أنى أراها أو أزورها؟ صمتت كأنها تفكر وقد شعرت بالحرج، فضحكت لأخفف من حرجها ويبدو الأمر كأنه مزاح.. مجرد مزاح! كانت تتكلم معى وهى تتلفت حولها وتبدو كمن تختلس الكلمات، كأنها تتوقع أن خطيبها من الممكن أن يظهر فى أى لحظة ويضبطها تتحدث مع أحد الشبان!

تخايلنى بعض التصورات أحياناً أنها قد تفسخ خطوبتها لأى سبب، كان هذا يحدث كثيراً مع الفتيات اللاتى يسارعن بإعلان خطوبتهن وهن مازلن طالبات، لو حدث هذا هل سيكون بإمكانى استردادها مرة أخرى؟ لا أعرف.. هل أرغب بالفعل فى عودة علاقتنا، لم أعد متأكداً!

لأول مرة أشعر أن فريدة تدخل المشهد وتحتل مساحة ما فى مشاعرى! لأول مرة أجد نفسى أعقد مقارنة بينهما، شعرت بشىء من الخوف، صعب على نفسى أن أبدأ من جديد، أتعامل مع فريدة بحرية كصديقة بعيداً عن قيود المشاعر، هذه المشاعر تمثل عبئاً ثقيلاً على النفس إذا كانت من طرف واحد، كما أننى لا أثق نهائياً فى رد فعلها لو حاولت الاتجاه بعلاقتنا نحو هذا الطريق الشائك!

الفتاة قد تنقلب تماماً إذا لم تكن مشاعرها معك.. إذا لم تكن تبادلك نفس الشعور فويل لك منها! ستلقى كل الاحتقار والازدراء، لن تحترم مشاعرك أو تتعاطف معها..

فريدة عنيدة وشرسة الطباع، وأنا أتعامل معها من موقع القوة وهى تعرف أنى لا أكن لها سوى مشاعر الصداقة فقط، لا أهتم بجمالها ولا بجسدها وليس عندى أى رغبة فيها لا عاطفياً ولا جسدياً، إنها على يقين من ذلك وتتعامل معى على هذا الأساس، إنسان يتعامل مع إنسان بغض النظر عن أى فوارق بينهما!

بالطبع ياسمين لها دخل فى ذلك، تجربتى المريرة معها جففت مشاعرى واستحوذت عليها، ولم يكن باستطاعتى أن أرى غيرها بنفس العين التى أراها بها.. عين العاشق!

أرفض هذا الإحساس ولا أريده، أن يذلنى الحب مرة أخرى ويضعنى فى موقف الضعيف الذى يرجو ويتمنى ويفرح بنظرة رضا أو كلمة..

أسبوعان مملان مضيا ببطء، صورت المحاضرات والسكاشن التى غابت عنها وجهزت لها نسخة، استقبلت عودتها بفرحة، كانت تضع ضمادة من الرباط الضاغط على قدمها اليسرى وتعرج عرجاً خفيفاً فى مشيتها.

– سلامتك يا ريدا..

هكذا وجدت نفسى أنطق اسمها وأنا أصافحها بحرارة، وأمسك كفها الناعمة وأضغط عليها كأنى أحتضنها بكفى، اتسعت عيناها دهشة

وابتسمت، هذه الابتسامة التى أعرفها جيداً، والتى تظهر على وجهها عندما يعجبها شىء أو تصادفها مفاجأة مفرحة!

– الله.. أول مرة ينادينى أحد بهذا الاسم.

– خلاص، من الآن سوف أناديك به دائماً.

ونحن نصعد سلم القسم أمسكت بيدها الدرابزين وأخذت ترتقى الدرجات ببطء، كان واضحاً أن قدمها مازالت تؤلمها، لم يكن بإمكانى أن أمسك يدها أو أن أسندها، لكنى كنت مستعداً لأن أساعدها فى أى لحظة تحتاج فيها للمساعدة، حتى لو اضطررت لأن أرفعها أو أحملها لو تعثرت..

التفتت إلىَّ وقالت كأنها قرأت أفكارى.

– لا تقلق أنا بخير.

تذكرت نشاطها وحيويتها وهى تتحرك برشاقتها وقوة خطواتها، كنت قريباً جداً منها حتى اقتحمنى عطرها ورائحة شعرها، انتبهت بغريزة الفتيات الحساسة التى تلتقط أبسط لمحة تتعلق بالتقارب الجسدى مهما بلغت رهافتها، وهذه الغريزة تحديداً فائقة الحساسية لديها.

قالت برقة كأنها تهمس.

– خلى بالك..

فهمت وابتعدت قليلاً لكن عينَّى ظلتا عليها وأنا مستعد، لن أدعها تتعثر أو يصيبها مكروه وهى بجانبى، كان هناك حنو لا عهد لى به تجاهها، منذ أن بدأت صداقتنا وأنا أتعامل معها معاملة الند للند،

كأنها صديق لى، أما الآن فلأول مرة أشعر بها كفتاة.. كأنثى، كصديقة لا كصديق، لا أنكر أن هذا الشعور بدا جميلاً وممتعاً!

كان الزملاء والزميلات يتوقفون ليسلموا عليها وهم يمرون بجانبنا صاعدين إلى المعمل، وعندما وصلنا إلى مدخل الممر، وكالعادة وجدنا طلبة وطالبات القسمين يقفون فى مجموعات على طول الممر انتظاراً لبدء المحاضرة الصباحية..

احتفوا بعودة فريدة، تجمعت الفتيات حولها واستقبلنها بالأحضان والقبلات الرقيقة، انسحبت وتركتهن يرحبن بها، وقفت مع خالد وبقية أصدقائى عند الواجهة الزجاجية للممر، جاءت ياسمين واشتركت بدورها فى حفل الاستقبال الحافل.

24

انقطع التيار الكهربائى فجأة، وهو بالطبع لابد أن ينقطع فجأة وبدون مقدمات، ونحن نذاكر، وساد الغرفة ظلام حالك!

– يووووه.. رجعنا لهذه الأيام السوداء مرة أخرى!

صاح عماد ساخطاً، كان أمامه على الطاولة عدة عظام بشرية، عظام حقيقة وليست نماذج، وقد انهمك فى فحصها ودراستها من كتاب ضخم بجانبه يحتوى على رسومات وصور لجميع أجزاء الهيكل العظمى، كان يأتى للمذاكرة وهو يحمل بالإضافة للكتب

والأوراق حقيبة كبيرة تحتوى على مجموعة متنوعة من العظام! مقبرة صغيرة متنقلة!

أشعلنا الولاعات وخرج شريف الذى كنا فى بيته يبحث عن شمعة، ولم يلبث أن عاد بها، أشعلناها فأضاءت الغرفة بنورها الشحيح، استرخينا على مقاعدنا فى انتظار عودة التيار، تناولت الراديو الترانسيستور الصغير وأخذت أقلب فى محطاته، فصادفتنى أغنية حلم لأم كلثوم، أغنية شاعرية وكلماتها فى غاية الرقة، لكن عماد قاطع صوت أم كلثوم السارى فى فضاء الغرفة المظلمة قائلاً، إن هذه الأغنية تصور اللقاء الجنسى بين عاشقين بكل تفاصيله الحميمة!!

فزعت لهذا الرأى الصادم وصحت فيه.

– ما هذا الكلام السخيف؟ الأغنية فى منتهى الرومانسية تتكلم عن المشاعر والأحاسيس المرهفة..

رد بهدوء وهو يبتسم.

– طيب.. اسمع ودقق فى معانى الكلمات الخفية، اقرأ ما بين السطور، وانظر إلى ما خلف المعنى الظاهرى البريء، سمعت هذا الرأى من رجال كبار ممن عاصروا أم كلثوم، فى البداية اندهشت لكن عندما سمعت الأغنية بتركيز وجدت كلامهم صحيحاً، يبدو أن الأمر كان معروفاً لدى جيلهم وهم شبان!

عاودنا الاستماع ولم نلبث أن بدأنا فى الضحك ونحن نفسر كلمات الأغنية من زاوية أخرى أو وفق رؤية جديدة أكثر عمقاً وخبثاً! كانت مفاجأة! ليس فقط فى الكلمات ولكن فى لحن زكريا أحمد أيضاً، تكاد تحس بلهاث العاشقين وهو يتصاعد تدريجياً حتى يصل إلى الذروة!

– يااااه.. بيرم التونسى كان رجلاً وعراً وشاعراً ماكراً! حمل الكلمات والجُمل بمعانى عديدة ظاهرياً وباطنياً، وجاء الشيخ زكريا وأكمل المهمة.

– ترى هل كانت أم كلثوم تعلم بهذا المعنى الباطنى؟ وبما فعله الشاعر والملحن فى أغنيتها؟!

– لا.. لا يمكن، السيدات لا يدركن هذه الأشياء ولا يستطعن فهمها، هذا كلام صياعة ولغة حوارى القاهرة والإسكندرية لا يفك شفرتها سوى من يفهمون أسرار العامية وألاعيبها اللفظية من الرجال..

– الله أعلم.. هاهاهاهاهاها

– لكن فى نهاية الأمر الأغنية بديعة، سمع وسلطنة سواء حصل أم لا..

هههههههههههه..

مر الوقت حتى انتهت الأغنية دون أن ترجع الكهرباء، وظللنا جالسين على نور الشمعة لأكثر من ساعة، هب طارق واقفاً وصاح.

– يلعن أم دى حكومة، أنا خلاص زهقت، حتى لو رجعت الكهرباء لن استطيع استكمال المذاكرة، مزاجى تعكر!

قمت أنا أيضاً وتبعنى شريف، أما عماد فبدأ يجمع عظامه ويضعها فى الحقيبة ثم طوى المفرش البلاستيكى الذى يضع عليه العظام ووضعه أيضاً فى الحقيبة، أخذنا نجمع أوراقنا وكتبنا استعداداً لإنهاء الليلة، وبمجرد أن انتهينا عاد التيار! فقال عماد معانداً وهو يشير للمصباح.

– يا ابن الكلب، والله ما فاتح الشنطة تانى!

ضحكنا ونحن نهم بالخروج من الغرفة، فى الشارع بعد أن ركبنا السيارة عقدنا مقارنة سريعة بين كوفى شوب شيراتون هليوبوليس وموفينبيك المطار، كنا منذ بضعة أيام فقط فى الشيراتون لذلك اتفقنا على الذهاب إلى الموفينبيك بلا منازعة ولا كثرة جدال!

***

لم يكن قد تبقى من قطعة الجاتوه الشوكلت كيك سوى جزء صغير، حينما رأيتها تدخل الكوفى شوب برفقة خطيبها!

ترتدى الفستان الأبيض فى أزرق، فستان اليوم الأخير، يوم آخر امتحان فى سنة أولى، تتألق جمالاً وأناقة لكن..

جلسا على طاولة لفردين مجاورة للواجهة الزجاجية المطلة على حمام السباحة، بينما كنا نجلس نحن الأربعة فى العمق حيث مكاننا المفضل على الكنب الفوتيه، برغم أنى رأيتها فى نهار هذا اليوم، لكن تلك اللحظة تحديداً كانت فارقة، بشكل بدا واضحاً تماماً لى، نظرت لها كمجرد زميلة.. لا أكثر، بلا أى ذرة عاطفة، الجذوة

الخافتة التى ظلت مشتعلة تحت رماد المشاعر لفترة طويلة.. جداً، شعرت بها تنطفئ فى هذه الليلة نهائياً وإلى الأبد!

يااااااااه.. أخيراً، أخذت أحتسى فنجان النسكافيه بارتياح وأنا أدخن وقد شعرت بثقل كبير ينزاح عن صدرى.

قال طارق بصوت مسموع كأنه يوجه خطابه لنا كلنا وليس لى بمفردى.

– أليست هى؟

قلت وأنا أضحك.

– نعم هى.

بسرعة بديهة فهم كل من عماد وشريف ما يقصده طارق، فالتفتا بحذر حتى لا يثيرا الانتباه ونظرا ناحيتها، ثم أخذا ينظران لى ومعهما طارق، كأنهم الثلاثة يستطلعون مشاعرى بما يظهر على ملامح وجهى!

– خلاص.. انتهى هذا الموضوع!

– بجد.

قال الثلاثة فى نَفَس واحد.

– نعم بجد.. ونهائياً، لم يعد هناك أى مشاعر فى نفسى ناحيتها!

– لازم نحتفل بهذه المناسبة السعيدة.

– احتفلوا أنتم، أما أنا فالأمر لا يستحق بالنسبة لى أى شىء..

كادوا يقذفوننى بما فى أيديهم، وهم يضحكون.

– يعنى انتهت أيام العذاب والدموع مع أغانى أم كلثوم!

– نعم، انتهت بلا رجعة، لكن أغانى أم كلثوم لن تنتهى.

قال عماد وهو يختلس النظر إليها.

– البنت زى القمر، جاتك نيلة فى حظك الفقر.

– خلاص راحت لصاحب نصيبها، والحمد لله على كل شىء.

رفع طارق كوب البيرة وأشار به ناحيتى قائلاً.

– فى صحتك، أيوه كده خليك راجل، بلا حب، بلا بؤس ووجع قلب!

شارك شريف أخيراً، قال بعد أن تأملها بهدوء وهو يرتشف فنجان النسكافيه.

– تعرف.. إنها كانت لائقة عليك جداً!

صاح به طارق ساخراً وهو يضحك.

– إنت أصلك رومانسى مثله، يا بتوع النسكافيه يا شواذ!!

– طيب خلى البيرة تنفعك يا ابن الـ...

***

فى طريق العودة وقبل أن نبلغ منتصف شارع المطار، ازدحم الطريق فجأة وأخذ السير يبطئ تدرجياً حتى توقف تقريباً، لم يكن هذا يعنى سوى أن حادثاً قد وقع، وبدا من توقف حركة المرور أنه أحد الحوادث المروعة، التى تحدث بين الحين والآخر على هذا الشارع بسبب السرعة الجنونية وتهور السائقين، الذين يغريهم اتساع الشارع وخلوه من الزحام على إطلاق العنان لسياراتهم!

قال شريف متأففاً.

– يا لها من ليلة، نحس من أولها!

رد عماد من خلف مقود السيارة.

– ربنا يستر، شكلها حادثة كبيرة.

أخذنا نقترب ببطء شديد، وبعد فترة طالت بدأنا نلمح فى الأفق ألسنة النار وهى تلون ظلام الليل، استغربنا، هل اشتعلت النيران فى السيارات بعد تصادمها؟ وارتفعت إلى هذا الحد المخيف؟

لا توجد أبنية أو عمارات على هذا الجانب من الطريق حتى تشتعل بالحريق! لا يوجد سوى مبنى واحد فقط، ولا يمكن أن يحدث فيه حريق بهذه الضخامة، لابد أنه مؤمن تماماً ضد الحرائق.

لكن مع اقترابنا من المكان والسيارة تزحف بنا، بدأت الرؤية تتضح شيئاً فشيئاً، ظهر مبنى شيراتون هليوبوليس وألسنة اللهب تتراقص على واجهته، والدخان الأسود الكثيف يندفع من سطحه منطلقاً نحو الفضاء؟!

أصابنا الذهول ونحن نتطلع بحزن إلى أحد أجمل فنادق القاهرة وأحبها إلينا.. وهو يحترق، وسيارات الإطفاء العديدة التى انتشرت حوله عاجزة عن السيطرة على النيران!

فوجئت بفريدة ونحن نقترب من نهاية العام، تتغير وتنفر من ياسمين، علاقتهما لم تتطور لتصل إلى الصداقة، لم ينسجما معاً، فريدة القطة الشرسة التى جعلتها صدمة موت أمها المفاجئ وهى طفلة تفقد ثقتها فى العالم، تتعامل بعدوانية مع الجميع كأنها تخشى على نفسها منهم، وتضع لنفسها الكثير من الخطوط الدفاعية فى علاقاتها مع الناس، وعقلها حاد الذكاء لا يتوقف عن التدقيق فى كل صغيرة وكبيرة تمسها، ومع كل من يحاول الاقتراب منها!

إنها تضيق بإخوتها من أبيها، طفلان صغيران لم يبلغا سن المدرسة بعد، لكنهما يملآن الشقة ضجيجاً وصرخاً ويحولانها إلى مكان لا يطاق بالنسبة لها! يكفى جداً ثلاثة أبناء ليعيشوا فى شقة واحدة، هذان الطفلان من أسباب شقائى فى الحياة، لا أطيقهما! كان من الأفضل ألا يولدا! ألم يكن يكفى وجود زوجته معنا فى الشقة وما سببته لنا من إزعاج، حتى يضيف إلينا المزيد من الهم!

كنت أشفق عليها وأشعر بمأساتها، وأستمع إليها متفهماً حالها وما تتعرض له من ضغط نفسى دون أن أثقل عليها بنصائح تقليدية، كما يمكن أن يفعل الآخرون، لن يكون لها أى جدوى، نصائح لن تزيد عن كلام يطير فى الهواء دون أن يغير فى الواقع شيئاً، خاصة كلامها العنيف عن والدها، تحبه وتكاد تقدسه وتفتخر بنجاحه فى

عمله وبمنصبه المتميز كمدير لأحد الفروع الرئيسية للبنك الأهلى، لكنها فى نفس الوقت تحنق عليه وتعتبره سبب كل مشاكلها فى الحياة! مسئوليته عن وفاة والدتها حسب ما تعتقده ثم زواجه وإنجابه..

ما بين العاطفتين المتناقضتين تكمن أزمتها الرئيسية! وصراعها الحاد مع نفسها، ببساطة كانت ترغب فقط أن تعيش حياتها فى أسرة طبيعية مثل الجميع، بلا زوجة أب وأخوة غير أشقاء.

استطعت أن أفهم بعد فترة طويلة من صداقتى لها أنها لا تعترف فى داخلها بوفاة والدتها؟! ترفض تقبل الأمر نفسياً ولا ترغب فى التعايش معه! برغم مرور كل هذه السنوات، كأن والدتها غائبة فى مكان ما وسوف تعود، مازالت تنتظرها منذ هذا اليوم المشئوم الذى خرجت فيه مع والدها، ذهبا فى مشوار سفر قصير يستغرق نصف يوم، ثم..

كنت أواسيها وأطيب خاطرها وأنا أسمعها، أتعاطف مع انكسارها وشعورها الهائل بالفقدان نتيجة ليتمها المبكر، لا شىء فى هذا العالم يمكن أن يعوضنى عن ماما، لا بابا ولا خالاتى ولا عماتى، كنت أكره شفقتهم وحنانهم ويصعب على نفسى جدا أن أكون فى هذا الوضع، موضع العطف من جميع الأقارب وأفراد العائلة!

***

حكت لى كيف أنها تقابلت مع ياسمين بالصدفة وهى تصعد السلالم العريضة لمدخل القسم، وفوجئت بها تسلم عليها بحرارة وتبدأ فى الكلام معها كأنها تعرض عليها صداقتها، وهو الأمر الذى رحبت به فى أول الأمر، لكن الأمور لم تسر على ما يرام بينهما بعد ذلك، حساسية بنات! سيطرة العاطفة على تفكيرهن وتقلب أمزجتهن لها دخل كبير فى علاقات الصداقة واستمرارها بينهن.

كنت أعتقد أن هذا التعارف سيستمر ويقوى مع الأيام، لكنى فوجئت بفريدة بعد خروجنا من أحد السكاشن تسلم على ياسمين ببرود عندما قابلناها فى الممر ونحن فى طريقنا للخروج من القسم، مجرد سلام وابتسامة مصطنعة وسؤال سريع عن الأحوال بلا روح، قرأت الموقف على الفور وفهمت أن شيئاً ما حدث بينهما من هذه الأشياء التى تحدث بين الفتيات وتعكر صفو العلاقة بينهن، أو تنهيها تماماً فى بعض الأحيان، استغربت فقد كنت أتوقع العكس! لم تكن هذه هى المرة الأولى، كنت قد لاحظت أن العلاقة بينهما قد فترت تدريجياً حتى وصلت إلى هذا السلام البارد..

عندما خرجنا من مبنى القسم وابتعدنا عن ضجيج زملائنا، سألتها عما لاحظته من فتور علاقتها مع ياسمين، فقالت على الفور.

– لم أرتح لها، إنها بنت لئيمة وخبيثة!!

– ماذا؟ ياسمين!! لا يمكن..

صحت بها وقد صدمنى كلامها، ثم أكملت.

– كيف هذا! إنها لطيفة ومهذبة، أنا أعرفها من زمان.

– لا تعرفها ولا حاجة، إنت أصلك غلبان وطيب زى بابا بالضبط، فاكر نفسك ناصح وفاهم كل حاجة فى الدنيا، وإنت تغرق فى شبر ميه!

كأنها خبطتنى عدة خبطات على رأسى، ولم أعرف إن كنت أضحك على كلامها وتريقتها المحسوبة أم أغضب، لكنى استوقفتها فى النهاية وقد بدأت فى الضحك.

– انتظرى.

أخرجت علبة السجائر وأشعلت سيجارة وسحبت نفساً طويلاً لأخفف من وقع كلامها المفاجئ، ثم أخذت أنظر إليها، وقد تضرج وجهها حمرة من الانفعال، وبدا جمالها فى تلك اللحظة متوهجاً ومثيراً!

– يعنى هذا رأيك فىَّ؟ غلبان وطيب زى بابا؟

تجاهلت سؤالى وقالت.

– ده شغل بنات بينهم وبين بعض، إنت مالك تتحشر فيه ليه؟

برغم لهجة المزاح التى قالت بها هذه الجملة، شعرت بالحرج ولم أعرف كيف أرد عليها، لكنها واصلت تلاعبها بى فقالت ضاحكة وهى تلتفت برأسها لتواجهنى.

– يا ابنى ده أنا مربياك على إيدى من سنة أولى! وعجناك وخبزاك!!

كان هذا أكثر مما أحتمل فقهقهت ضاحكاً.. وقد انتابتنى رغبة مجنونة أن أجذبها نحوى لأضمها وأحتضنها!

26

لم استطع النوم فى تلك الليلة من شدة تفكيرى فيما حدث بينى وبين فريدة أو ريدا كما أصبحت أناديها، هاجمتنى الأفكار وأخذت كلماتها وضحكاتها تتردد فى عقلى، تناوشنى من كل الجوانب وتمنع عنى النوم، أدخل فى دوامات التفسير التى لا تنتهى لكل كلمة وحركة وتعبير على الوجه!

أزعجنى أن أفكر فى فريدة على هذا النحو، كعاشق! أن تدخل فى هذه المنطقة التى ملأتها ياسمين بالغيوم والصواعق، هذه المنطقة التى جفت وماتت أرضها، لكن تفكيرى فيها اتخذ مساراً مختلفاً رغماً عنى، ودون أن أتعمد ذلك نهائياً! بعيداً عن الرومانسية وعشق الروح! بعيداً عن المسار الذى كنت أفكر فى ياسمين به!

يسرح الخيال فى كل ما هو مادى، يشاغبنى جسدها وأفكر فيه، أريد أن أقترب منه، احتضنها وأذوب بين يديها أو تذوب هى بين ذراعىَّ، أتخيل كل شىء.. ويسرح بى الخيال إلى النهاية.. ثم أرجع مرة أخرى إلى الواقع، إليها.. ريدا صديقتى الجميلة، التى أصبحت من أقرب الناس إلى نفسى، كيف تفكر هى فىَّ؟ ما الذى أمثله بالنسبة

لها؟ لا أستطيع التأكد، من ناحية الصداقة أعرف مدى قوة علاقتى بها وما تكنه لى، أما من ناحية المشاعر فمن الصعب التكهن..

لكن هذه الجملة التى قالتها وهى تضحك، تدور فى عقلى وخيالى، أفسرها بألف تفسير، مربياك على أيدى من سنة أولى وعجناك وخبزاك!! مجرد دلع بنات ومزاح لا تقصد به شيئاً، أم أنها تقصد؟ ليس من السهل أن يقال مثل هذه الكلام لشاب من فتاة، وخاصة لو كانت هذه الفتاة.. فريدة! تتلاعب بى وبمشاعرى.. لماذا؟ هل تعرف بما كان بينى وبين ياسمين؟ هل عرفت أنى كنت أحبها؟

***

وأنا فى الكلية أحتفظ بهذه الأفكار داخل نفسى، تحررى من أسر ياسمين جعلنى أكثر مرحاً واستمتاعاً بالحياة الجامعية مع أصدقائى وصديقاتى، بعد أن تخلصت من مشاعر الندم والحسرة التى خنقتنى لفترة طويلة.

هذه التجربة جعلتنى أكثر صلابة وتماسكاً فى مواجهة مشاعرى والتعامل معها، أصبحت بلا قلب تقريباً! لكن هذا لم يمنع أن نظرتى لفريدة تغيرت بعض الشىء، وبدأت فى حسابات معقدة بشأن علاقتى بها، وإذا كان يمكن لهذه العلاقة أن تتطور وتتجاوز مرحلة الصداقة، أتعجب وأنا أتأمل مشاعرى وأنظر داخل نفسى، إن هذه المشاعر التى تحركت بسرعة نحو ياسمين وتأججت حتى أحرقتنى،

تتعامل بجمود مريب مع فريدة برغم أنها أجمل وعلاقتى بها أقوى بكثير مما كانت مع ياسمين؟!

العقل هذه المرة يسيطر على العاطفة ويتحكم بها ولا يدعها تنطلق على هواها! تعلم من الدرس القاسى والصفعة التى تلقاها..

***

وأنا أتمشى مع أصدقاء القسم ونحن فى طريقنا للمقهى، كنت أسير مع خالد وأمامنا صديقانا الآخران فى المقدمة، لمحت صديق ياسمين السابق يمشى بمفرده كحاله دائماً منذ أن صعدنا لسنة ثالثة، كنت مازلت أكرهه ولا أطيق رؤيته، أشعر بالغضب بمجرد أن ألمحه، لكنى أشرت لخالد عليه، فقال مستغرباً.

– يحيى.. يااااه إنت تقصد يحيى بكل هذا الذى حكيته!

– ماله..؟ هو شاذ جنسياً يعنى ولا إيه؟

– هههههههههههه..

أغرق خالد فى الضحك ثم قال.

– لا.. مش القصد، أنا أعرفه من سنة أولى، شاب طيب ومحترم!

قاطعته وقد ازددت حنقاً.

– طيب طيب.. فى داهية.

يبدو أن سيرة الحب والكلام فيه فتحت شهية خالد على الفضفضة، لم يلبث أن بدأ يحكى لى ونحن نسير وبصوت قد انخفض حتى تحول إلى همس، عن الفتاة التى يحبها فى دفعتنا، كان يتكلم بلغة

أعرفها جيداً وأفهم جميع مفرداتها، لغة العاشق المحروم الذى يكتوى بنار الحب ويعانى من الهجر، بالطبع توقعت إنها إحدى فاتنات الدفعة، وأخذت أستعرضهن فى ذهنى وهو يحكى عنها، فشاب مثله يتذوق الجمال ويقدره لابد له أن يعجب بفتاة مبهرة وغير عادية.

لم أستطع معرفتها وهو يصفها ويذكر اسمها والقسم الذى التحقت به، أو استطعت إلى حد ما واعتقدت أنى قد فهمت خطأً.. فلا يمكن!

الفتاة التى توصل إليها تفكيرى، لا تمت للجمال بصلة، بيضاء كالحة اللون، كما إنها بدينة الجسم، ليست حتى تلك البدانة المتناسقة التى قد تكون مقبولة شيئاً ما، لكنها البدانة المترهلة الثقيلة مع صدر ضخم بشع وأرداف عظيمة الحجم أبشع وخصر هائل، هناك من البدينات من هى خفيفة الدم والروح ودائمة المرح تشيع جواً من البهجة حولها، وتجدها تسخر حتى من وزنها الزائد وحجمها الكبير، لكن صاحبتنا هذه على العكس.. متجهمة وتشعر أنها ناقمة على الدنيا!

كذبت ظنى وقلت فى نفسى لابد أن تكون فتاة أخرى، لكن وكأنها جاءت على السيرة ظهرت أمامنا من بعيد وهى تمشى بصحبة مجموعة من الطلبة والطالبات، إنهم شلتها وهى إحدى الشلل المعروفة على مستوى الدفعة!

أشرت نحوها قائلاً.

– هل تقصد.. هذه الفتاة؟

رأيته وأنا غير مصدق ينظر إليها نفس النظرة التى كنت أنا أنظر بها إلى ياسمين عندما تظهر أمامى فجأة! وتنتابه نفس حالة العبط التى كانت تنتابنى!

كدت أضحك ولكنى سيطرت على أعصابى، وقلت له وأنا لا أتمالك نفسى من الابتسام، محاولاً قدر استطاعتى ألا أبدو ساخراً.

– لكن كيف؟ إنها.. أقصد يعنى..

قاطعنى بأسى وقد تلونت ملامحه بابتسامة خجل!

– أنا أحب البنات هكذا! أحب البدينات، البنت الرفيعة النحيفة الجسد لا تملأ عينى!

ثم فرد أصابعه فى الهواء على هيئة قمع وأدارها عدة مرات فى إشارة إلى النهد الصغير، غالباً كان يقصد أو يلمح إلى ياسمين وفريدة، وأكمل كلامه ساخراً كأنه يعايرنى..

– الحاجات الصغيرة دى زى قلتها، ولا تنفع معنا!!

لحظتها لم أتمالك نفسى وانفجرت ضاحكاً.

– ده إنت مجرم، يعنى تتغزل فى الجميلات الرشيقات وتصفهن فى شعرك وكلامك، بالغزلان والعصافير والأفراس والقطط ثم نهاية الأمر نجدك تحب البدينات؟

– قدر ربنا، أعمل إيه؟ ربنا خلقنى كده!

– طيب، اكتب عنهن فى شعرك وتغزل فيهن كما تشاء.

ضحك وهو يقول، ألم تسمع كيف وصف الله الشعراء فى القرآن، إنهم يقولون ما لا يفعلون.

– طبعاً..

قال وهو يهز رأسه.

– هكذا أنا أيضاً، عالم الشعر بالنسبة لى شىء، والواقع شىء آخر تماماً!

لكن حالة الأسى التى كان يتكلم بها استوقفتنى بالطبع، سألته عن طبيعة العلاقة بينهما وإلى أى مدى وصل الحب بهما؟ أخبرنى بكلمات مضطربة أنه يكلمها وبينهما صداقة خفيفة، وأنها متحفظة فيما يزيد عن ذلك، فهمت منه بشكل غير مباشر أنها رفضت تقريباً عندما صارحها بإعجابه بها، لكن دون أن تقطع علاقتها به!

– يا خبر أسود.. يعنى كمان إنت مش عاجبها؟!

– أيوه..

قالها بأسف وأخذ يتكلم عنها وهو حزين ولوعة الهجر تمزقه، بدا لى الموقف عبثياً ومضحكاً، لكنى استمعت له بانتباه وبوجه خال من أى تعبير يدل على السخرية، بدأت أعى متعجباً أنه يحبها بصدق.. ويتألم!

سألت فريدة مرة أخرى ونحن عند الدولاب نضع فيه البلاطى وأدوات المعمل، وكان الحال قد استقر بنا على الاستمرار معاً فى نفس الدولاب، عن سبب الجفاء بينها وبين ياسمين، بعد أن رأيتها تسلم عليها ببرود ومن أطراف أصابعها!

هذه المرة قالت على الفور.

– بسلامتها كان عندها عريس لى!! كأنها فاكره أنى لا أجد عرساناً، ولا مستعجلة على الزواج مثلها.

اندهشت وشعرت بغصة فى حلقى، هل تتعمد أن تناوشنى لتعرف مدى علاقتى بفريدة؟ قلت باستهجان مستهيناً بالأمر.

– دمها ثقيل صحيح! هل العريس قريب لها؟

– لا، قالت إنه صديق لخطيبها، لكنى مسحت بها الأرض على تدخلها فى أمر من أمورى الشخصية.

– تستاهل، أحسن.

– قلت لك إنها خبيثة ولئيمة، لم أرتح لها أبداً!

جاريت فريدة والأسى يتلاعب بى وقد اجتاحنى شجن.. علقت هى بكلمة الختام قائلة بزهو وكبرياء وشىء من العصبية.

– الوقحة، لا تعرف أن الخُطاب يُلحون على بابا منذ أن كنت فى الثانوية العامة.

– معلش يا ريدا.

كانت قد فتحت حقيبة يدها وهى ترتب أشياءها، لمحت زجاجة عطر سوداء بغطاء ذهبى وهى تقبع داخلها! نفس النوع الذى تستعمله ياسمين، ربما كان هذا العطر هو الشىء الوحيد الذى يجمع بينهما!

ونحن ننزل السلم بين زحام الزملاء رأيت أحد أساتذتنا فى القسم يصعد فى مواجهتنا، كنت عادة أجعل فريدة بجوار سور السلم حتى لا يقترب منها أحد، سواء بقصد أو بدون قصد خلال تزاحم حركة الطلبة أثناء الصعود أو النزول، أفسحت الطريق للدكتور فلامست ذراعى كتفها وذراعها بقوة للحظة خاطفة، ابتسم الدكتور وحيانا وهو يمر صاعداً بجانبنا.

– كيف حالكم يا أولاد؟

– الحمد لله يا دكتور، ربنا يخلى حضرتك.

فيما بعد سوف أعرف من الأصدقاء الذين تعينوا معيدين فى الكلية، أن أساتذتنا ظلوا يذكرون دفعتنا كأجمل دفعة تعاملوا معها، وأن أيامنا فى الكلية كانت أجمل أيام شهدوها على مدى عهدهم بالتدريس!

عندما وصلنا الكافتيريا، طلبت هى قهوة دوبل! فداعبتها وأنا أسحب علبة السجائر من جيبى.

– هل تريدين سيجارة أيضاً مع القهوة؟

ابتسمت وقالت بتحد.

– هات! لو تقدر..

– يخرب بيت جنونك.

هاهاهاها..

***

– أراك حزيناً منذ فترة!

قال لى خالد بينما نقف فى مكاننا المفضل عند الواجهة الزجاجية لنوافذ ممر المعمل، كنت أضع كوب الشاى على الحافة الرخامية العريضة وأدخن سيجارة بينما أتأمل الحديقة وحركة الطلبة بها، نظرت له وأنا أبتسم مندهشاً!

– لست حزيناً على الإطلاق.

– طيب اسمع هذه.

أخرج من جيبه ورقة مكتوبة بخط يده، رأيت الأبيات ذات الشطرين منتظمة فى منتصف الصفحة من أولها لآخرها، بدأ يقرأ بصوت مُنغم خافت وأنا أنصت منتبهاً ودهشتى تزداد مع كل بيت يلقيه.

الظبية الرشيقة، والفرس الجميلة الجامحة، والمقارنة بينهما، وصف بارع صاغه بلغة عذبة مملوءة بالشجن، ثم يسرد بعد ذلك من خلال الأبيات قصتى مع ياسمين ومعاناتى وحيرتى، أعدو خلف الظبية الشاردة التى فرت من يدى هائماً فى البرارى والوديان، والفرس البديعة إلى جانبى تحنو علىَّ ولا تتركنى، استغل ما حكيته له – اللعين – ليكتب هذه القصيدة.. الرائعة.

obeikan.com

– جميلة.. يخرب عقلك.

– أشكرك يا صديقى.

– لكنى لن أظل أجرى خلف الظبية إلى نهاية العمر!

– هذه رؤية فلسفية تطرحها القصيدة لا شأن لها بك، استلهمت حكايتك فقط كقاعدة أنطلق منها وأكتب..

– نعم.. وبالنسبة للفرس، ما مصيرها؟ لم تقل عنها شيئاً فى نهاية القصيدة.

– ستكون أحمق لو تركت الفرس تشرد منك أيضاً! هذا معنى يُفهم ضمناً بغير حاجة إلى كتابته صراحة.

–.....

أكمل ضاحكاً.

– بعد ذلك ماذا تظن سيبقى لك؟ بعد أن ضيعت الغزال الجميل، هل ستترك الفرس التى تحوم حولك تذهب بعيداً.. إلى فارس آخر!

نظرت له بحيرة، لم يكن لدىَّ إجابة، كنت قد سئمت من تشبيهاته للبنات بالفرس والغزال لكنى لم أخبره بذلك، ظللت صامتاً وانشغلت بكوب الشاى وأشعلت سيجارة ثانية من جمرة السيجارة الأولى التى انتهت، وهو أمر نادراً ما أفعله.

لعدة أيام ظلت تتردد فى عقلى، ماذا سيتبقى لك؟ ستكون أحمق لو تركتها تشرد منك، العام يوشك على نهايته، والامتحانات تقترب بأيامها السريعة الجميلة التى لها مذاق خاص لدينا جميعاً.

***

obeikan.com

بين الحين والآخر كان عادل عصير، برغم أن التشنيعة التى أطلقناها عليه عُرفت فى الدفعة كلها واشتهر بين الطلبة بلقب عصير، ومع علمه بأننا مصدر هذه التشنيعة، يأتى ليجلس معنا فى الكافتيريا ومعه عبير، زميلته فى القسم، فتاة جميلة كنت أراها معه باستمرار منذ بداية السنة، بنت وديعة وهادئة الطباع، قصيرة القامة وشعرها بنى اللون وناعم كالحرير، جسمها صغير لكنه بارز الأنوثة! أنيقة تهتم بمظهرها لكن فى بساطة وتواضع، تقريباً ليس لديها سوى ثلاثة أطقم ملابس تبدل بينها! كان واضحاً أنه يتعامل معها باحترام وبأسلوب مختلف عن الأسلوب المبتذل الذى كان يتعامل به مع الفتيات السابقات! يضحك ويهزر بحساب وبلا غمزات أو تهريج رخيص! كأنه يريد أن يظهر أمامها بمظهر الرجل المحترم المتزن! لعله يحبها.. من يدرى؟! لكنى برغم هذا كنت أشفق عليها وعلى سذاجتها! فهو يسيطر عليها بشكل يثير الاستغراب، وهى تخضع له ولا تعترض؟!

كنا نعلم أن والد عبير توفى ونحن فى بداية الفرقة الثانية، ظلت معظم هذه السنة ترتدى ملابس الحداد السوداء، وأنها تعيش مع والدتها وإخوتها الصغار على معاش أبيها الضئيل، لا أعرف إلى أى مدى استغل عادل ظروفها وبمَ وعدها حتى يظفر بصداقتها؟ لكنى كنت متأكداً أنها لن تخرج من هذه العلاقة سليمة! إن نجت جسدياً فلن تنجو نفسياً ومعنوياً؟!

كنا نجلس فى حديقة الكافتيريا بعد أحد امتحانات العملى، والدنيا فى نهاية فصل الربيع تقريباً، أسوأ فصول السنة فى مصر وأكثرها تقلباً، يومها كان الجو خانقاً ومتربا بعض الشىء والشمس ساطعة وحامية بينما الهواء فى الظل به لسعة برودة خفيفة، الزهور متفتحة ومنتشرة حولنا والأشجار مزدهرة بأوراقها الجديدة، هذا الجو يبدو أنه المفضل لدى الحيوانات للتناسل!!

يعيش فى الكلية بشكل مستديم عدد من الكلاب والقطط، الكلاب مستأنسة تماماً وتتجول بحريتها فى أنحاء الكلية وحدائقها، دون أن تتسبب فى أى مشاكل مع جموع البشر الذين يزاحمونها فى موطنها!

كما يحدث دائماً مر بالقرب منا سرب صغير من الكلاب، لكن هذه المرة كانت تسرى بينهم حركة مداعبات مريبة، توجسنا منها شراً، فعلى مدى السنوات التى قضيناها فى الكلية لم يفعلوها أمامنا! لم يضعونا فى هذا الموقف المحرج أمام الفتيات أبداً.

أكمل السرب تجواله وابتعد عن الحديقة، لكن ظل كلب منهم مع أنثاه بالقرب من السور الشجيرى على مقربة من جلستنا، بدأ يتودد إلى رفيقته ويتشممها علناً وبلا حياء أمامنا، ولم يلبث أن بدأ فى محاولة معاشرتها فعلاً..

تصرفت الفتيات كأن شيئاً لا يحدث، تجاهلن الأمر تماماً وهن بالطبع يتوقعن منا التصرف بما يلزم تجاه قلة أدب الكلب ووقاحته! لكن رغماً عنهن احمرت وجوههن وأدرنها بعيداً متحاشيات النظر.

كان سامى فرحاً فرحة طفولية وهو يراقب تصرفات الكلب وسفالته، ظل لثوان يراقب المشهد وهو يكاد يضحك، لكنه سرعان ما انحنى على الأرض والتقط حجراً، لمحه بالمصادفة قريباً منه، وصوبه بسرعة ودقة نحو الكلب فأصابه فى فخذه، عوى الكلب لكنه لم ينزل عن أنثاه، تحركا معاً لخطوتين لكنهما لم يبتعدا!

ضحك عادل بوقاحة وبصوت عالٍ وهو يتلذذ بالمنظر غير عابئ بعبير كأنه نسى وجودها! بينما كانت هى جالسة تنظر إلى الكلبين فى هدوء أقرب للبرود وبلامبالاه كأن الأمر لا يعنيها، أو كأنها لا تفهم ما يدور أمامها، ظنت أن الكلبين يتعاركان.. مثلاً!

المشكلة التى واجهتنا كانت فى عدم توفر قطع الحجارة أو الزلط أو أى شىء آخر نقذف به الكلبين حتى يبتعدا، كنت مستاءً ومحرجاً أن ترى فريدة وبقية الفتيات هذا المنظر، بحثت بعينى فى الأرض حتى وجدت زلطة صغيرة التقطها وقذفتها نحوهما بقوة لكنها طاشت، كان الكلب قد تمكن من رفيقته وسيطر عليها وانهمك غير عابئ ببنى البشر الموجودين بالقرب منه وبصياحهم وضجيجهم فى معاشرتها، وهو منتصب على قائمتيه الخلفيتين مكرراً تلك الحركة البذيئة ومصراً عليها إصراراً مستميتاً!

هذه الحركة البذيئة هى سبب استمرار الحياة على الأرض! أمر مدهش ويدعو للتأمل! أن يكون هذا الفعل الذى نخجل منه جميعاً هو أساس البقاء على هذا الكوكب وبدونه تفنى الحياة عليه؟!

جميع الكائنات تسير على درب الغريزة وحدها، تفعل هذا الأمر مباشرة وبمنتهى البساطة مستجيبة لنداء الطبيعة، لا حب ولا مشاعر وبلا ألم الوجد وعذاب العشق، كل الإناث سواء لدى الذكور، وكذلك الأمر لدى الإناث لا فرق بين ذكر وآخر.

من وجهة نظر الكلب يعد ما فعله أمراً عادياً وطبيعياً جداً، لذلك لم يدرك ولا كان يمكن له أن يدرك سر العلقة المهولة التى نالها من الكائنات الأخرى، التى تأتى من حيث لا يعلم لتشاركه المكان الذى وُلد وعاش فيه كل عمره!

كان بعض الطلبة قد جروا مسرعين وأحضروا المقشات والممسحات من داخل الكافتيريا، وانهالوا بها على الكلب المسكين بقسوة حتى صرخ وجرى هارباً وهو ملتصق بأنثاه لا يملك منها فكاكاً.

بمجرد أن انتهى الموقف انصرفت الفتيات وأخذن عبير معهن، قمن معاً مغادرات الكافتيريا وقد بلغ بهن الخجل غايته، ربما ذهبن بعيداً ليضحكن فيما بينهن.. لا أعرف!

انطلق سامى ضاحكاً وهو يسب الكلب ويلعن سنسفيل جدوده، بينما كنت أنا وعبد الله وبقية الشبان نبتسم وقد ضايقنا ما شعرنا به من إحراج بسبب سخافة الموقف وعبثيته أمام الفتيات!

***

بحركة استعراضية توقف عادل أمامنا بسيارته البيجو التى اشتراها حديثاً، سيارة موديل عدة سنوات مضت لكن طلاءها الأزرق كان يلمع تحت أشعة الشمس كأنها جديدة، كنا بالكاد قد خرجنا من بوابة

الكلية ولم نمش سوى بضعة أمتار، دعانا للركوب معه عارضاً أن يوصلنا!

قرأت الموقف فوراً ولم يكن لدى ذرة شك أنه يريد أن يلفت نظر فريدة! أو يبدو أمامها بمظهر الشهم! أو لعله ظن أنه سيبهرها بسيارته!

قال وصوت الكاسيت العالى يصدح داخل السيارة بموسيقى أغنية أجنبية.

– اتفضلوا أوصلكم معى.

رددت عليه بلهجة تعمدت أن تكون ساخرة.

– إنت يا ابنى مش طريقك ناحية المطرية!

– لأ.. أصل عندى مشوار فى مصر الجديدة..

– طيب اتوكل على الله روح مشوارك.. طريق السلامة!

ضحكت فريدة بعد أن ابتعد بسيارته، كانت قد ظلت صامتة وأشاحت بوجهها بعيداً بمجرد أن توقف أمامنا، بالطبع فهمت الموقف كما فهمته أنا تماماً، علقت قائلة وهى مازالت تضحك.

– كويس أنك كسفته.. يستاهل.

ونحن نكمل طريقنا إلى محطة الأتوبيس، أضافت بانفعال وبنبرة عصبية برغم أن وجهها كان يبتسم.

– عارف.. والمصحف لو كنت وافقت أن نركب معه، ما كنت سأعرفك ولا أتكلم معك بعد اليوم!

إجازة الصيف الأخيرة فى حياتنا الدراسية لها إحساس مختلف، يلونها الشجن بعباءة من المشاعر المتناقضة! لم يبق أمامنا سوى عام دارسى واحد، ريدا صديقتى الجميلة عضوه فى نادى آخر من نوادى مصر الجديدة، كنت أحب أن أقابلها أثناء شهور الإجازة لكن..

سافرت فى رحلة طويلة نسبياً إلى المنيا، ذهبت خلالها إلى تل العمارنة مدينة أخناتون وتجولت وسط أعداد قليلة من السائحين فى أطلال "أخت أتون"، ونزلت إلى المقابر الموجودة بالقرب منها، مقبرة هيا مراقب الحريم الملكى! ومقبرة أحمس حامل مروحة الملك! ومقبرة أى وزير أخناتون، معظم المعالم تم تدميرها، والقبور شوهت وطمست جدرانها أثناء العصر الفرعونى نفسه، بعد انتهاء حكم أخناتون، لم أسعد كثيراً بزيارة هذه المنطقة برمالها الوعرة وصخورها المتكسرة المتناثرة.. نفرتيتى الجميلة لم يبق لها أثر هنا!

وفى مرة أخرى ذهبت إلى منطقة تونا الجبل، جبانة مدينة هيرموبوليس اليونانية وكنت حريصاً على زيارة مقبرة إيزادورا، قرأت عنها من قبل وأردت أن أرى الفتاة اليونانية الجميلة صاحبة أشهر قصة حب فى التاريخ المصرى القديم وجهاً لوجه!

ماتت غرقاً وهى شابة، فحنطها والدها حاكم الإقليم على الطريقة المصرية وأقام لها مقبرة فارهة، وقفت أتأمل جثمانها داخل الصندوق

الزجاجى، جسدها مغطى بغطاء أبيض ولا يظهر منها سوى وجهها وقدميها، فمها مفتوح وتبدو من خلاله أسنانها متكسرة، على الأرجح أنها عانت فى موتها! أو تعرضت لحادث قبل أو أثناء غرقها! هل تعرضت للضرب قبل أن تلقى فى النيل؟! برغم الفزع الظاهر على وجهها والذى يعكس لحظات الألم الأخيرة فى حياتها، ملامحها مازالت شابة وجميلة.. كانت فى التاسعة عشرة من عمرها!

قبل ثلاث سنوات من موتها المأساوى أحبت ضابطاً مصرياً شاباً يعمل فى حامية المدينة، التقت به فى أحد الاحتفالات الدينية، ووقعا فى الحب من اللحظة الأولى، كانا يلتقيان عند شاطئ النيل سراً، تخرج متخفية من قصر أبيها وتذهب للقائه، لم يُكتشف أمرهما بسهولة، ظل حبهما مستمراً لسنوات حتى عرف والدها، استشاط غضباً من ابنته، كيف لها أن تحب شاباً مصرياً ليس من طبقتها ولا من بنى جنسها الإغريق؟ كانت مصر قد فقدت مجدها وتحولت إلى ولاية يونانية!

منعها من مقابلة حبيبها وأصدر أوامره بعدم خروجها من القصر إلا بصحبة الحرس، لكنها لم ترضخ وحاولت الهرب لتتزوج حابى الضابط المصرى بعيداً عن أبيها وسطوته، لكن الحراس كانوا فى كل مرة يطاردونها ليقبضوا عليها ويعيدوها بالقوة إلى القصر، وأبوها يزداد تعنتاً ورفضاً لزواجها ممن تحب.

بعد محاولات عديدة استطاعت أن تراوغ حراسها لتفلت منهم وتذهب للقاء حابى بعيداً عن عيونهم، للمرة الأخيرة، جلست معه طويلاً فى مكانهما الأثير، والنيل يراقبهما ويشفق عليهما، كان يعرف أنه سيأخذها منه بعد قليل! ثم ودعته وذهبت.

فى طريق عودتها قررت أن تلقى بنفسها فى النيل " حابى "، قررت الانتحار بعد أن يئست ولم يعد لديها أمل فى الزواج من حبيبها..

هل قابلها أحد فى الطريق وهى تمشى بمحاذاة النهر، أبوها أو حراسه؟! ملامحها فى رقدتها الأخيرة تشى بأنها لم تمت فى سلام!

ندم أبوها على موتها.. أو قتلها! وحزن عليها حزناً شديداً، فاقام لها مقبرة فارهة بطراز معمارى فريد من نوعه ليخلد ذكراها، وصنع لها أثاثاً جنائزياً فخماً، لعله يعوضها فى الآخرة عما لاقته فى حياتها من معاناة!

ظل حابى يزورها لسنوات مساء كل ليلة ليشعل لها شمعة ويجلس بجانبها لبعض الوقت يحدثها ويناجيها، حتى شاع أمره وعرف من لم يكن يعرف من الناس بقصة حبهما..

ظللت لعدة أيام بعد زيارة إيزادورا وصورتها لا تفارق خيالى، أتذكر مأساتها وأحزن على مصيرها! وأفكر فى حابى، كيف كان يبدو؟ وكيف كانت شخصيته؟ وهل كان يستحق أن تتحمل من أجله كل هذا العذاب؟!

***

عدت إلى القاهرة، إلى ملعب الإسكواش وحمام السباحة نهاراً، والانطلاق مساءً فى ليلها العامر مع أصدقاء الطفولة من ناحية وأصدقاء الجامعة من ناحية أخرى، ثلاث شلل من الأصدقاء كل شلة فيهم لا تعرف الأخرى، شلة المدرسة وشلة سنة أولى وشلة القسم، تنوع كبير فى الأصدقاء وأنماط مختلفة من الشخصيات، كلهم أصدقاء دراسة.

اعتدنا أنا وعماد وطارق وشريف أن نذهب إلى منطقة كفر الجبل القريبة من الهرم، لنركب الخيل هناك، يوجد إسطبل كبير خلف القرية الصغيرة عند نهاية الأرض الزراعية، تمتد أمامه الصحراء فسيحة وتبدو الأهرامات الثلاثة فى نهاية الأفق واضحة برغم بُعد المسافة، الركوب هنا مختلف عما هو عليه حول الهرم حيث سخافة ولجاجة الخيالة ومماطلتهم ومغالطتهم فى الحساب والوقت، فهم يتعاملون باللفة حول الهرم وليس بالزمن، بالإضافة إلى عدم وجود فرصة أو مساحة من الأصل للرمح بالخيل!

اكتشف عماد هذا المكان من خلال زملائه بنادى الفروسية، وكان هذا بمثابة عالم سحرى انفتح أمامنا، أصبحنا نأتى باستمرار حتى صرنا زبائن معروفين، نؤجر بالساعة لا بعدد الدورات حول الهرم وبدون مغالطات أو سخافات.

نخرج بالخيل المدربة ونمشى بها حتى بداية الرمال الناعمة المفتوحة، التى ما إن تصلها الجياد حتى تصبح مهيأة للركض من

تلقاء نفسها، نرمح بها على راحتنا بعيداً عن التلال الرملية والصخرية المنتشرة فى صحراء الهرم الخلفية، ونتجنب الأماكن التى تكثر بها الصخور أو نخفف السرعة حتى نجتازها والخيل تمشى " تروت " على أقصى تقدير، وهى السرعة الثانية للحصان بعد المشى، عملاً بنصائح عمال الإسطبل.

الوقوع عن حصان يركض فى هذه الأماكن الصخرية أمر شديد الخطورة وقد يكون مميتاً، الحصان بغريزته يتجنب الصخور ولا يتعثر بها، أما الإنسان لو وقع عليها فعلى روحه الرحمة كما قال لنا أحد الخواجات!

معظم زبائن الإسطبل من الخواجات المقيمين فى مصر، ليسوا سائحين كما هو الحال عند الهرم، بعضهم يمتلك حصاناً أو فرساً ويبقيه هنا فى الإسطبل فى مكان خاص به " بوكس " فردى بعيداً عن حظائر الخيل التى تؤجر.

كان طارق ينظر إلى النساء الشابات الجميلات من بينهن ويتمنى لو استطاع التعرف على واحدة أو أكثر منهن ومصادقتها، لكن لم تكن هناك أى فرصة، فهن لم يكن يأتين بمفردهن إلى هذا المكان أبداً! إما مع أسرهن أو مع أصدقائهن الشبان من هواة الخيل ومحبيها، جميعهم يجيدون الركوب حتى أطفالهم ويتعاملون معها ببراعة، كانت هناك فتاة ألمانية شابة أكبر منا فى العمر ربما فى الثلاثين أو نهاية العشرينيات، لديها حصان أبيض جميل، تأتى باستمرار إلى أكثر

أماكن القاهرة سحراً على حد قولها لتتريض على حصانها، تشبه فريدة إلى حد كبير وتذكرنى بها.

***

أفكر فيها كثيراً، أفتقدها عندما تبتعد وأزهد فيها وهى قريبة! كأنها الماء أغلى مفقود، وبدونه لا حياة! مشاعرى تجاهها تختلف اختلافاً جذرياً عما كانت عليه مع ياسمين، ربما لو كانت علاقتى بها قد سارت على نفس الطريق الذى سارت عليه علاقتى بفريدة لكانت مشاعرى نحوها أصبحت عادية ولم تتحول إلى هذا الحب الجارف! لولا أنى فقدتها مبكراً.. لكن لا، لقد أحببتها من قبل أن أفقدها، من قبل أن تشرد بعيداً عنى! هل هى التى تقف عائقاً بينى وبين فريدة حتى الآن؟ تقيد مشاعرى وتمنعها من الانطلاق، أم أن الأمر يتعلق بفريدة نفسها وطبيعتها وشخصيتها الحادة؟

بالنسبة للصداقة أستطيع التعامل معها وبيننا الكثير مما نتلاقى فيه، لكن بالنسبة للحب فالأمر أصعب، أدرك الآن بعد كل هذه السنوات أنه ليس من السهل الدخول فى علاقة حب معها! بشكل أكثر وضوحاً لابد أن تكون هى من ترغب فى هذا الحب، لابد أن تكون هى من يريد، لا يستطيع أحد أن يرغمها أو يقنعها أو أن يتودد إليها حتى ترضى وتحبه! من يقدم على هذا معها أو يحاول لن يجد سوى الإعراض والسخرية!

***

قريب لى فى الثلاثينيات من عمره، لديه كل الإمكانيات، شقة، عمل جيد، سيارة، بالإضافة إلى مظهر مقبول، مازال يبحث عن عروسة ولا يجد! سمعت طرفاً من حكايته وأنا فى البيت، بعض أقاربنا فى العائلة رتبوا له زيارة تعارف منذ فترة وجيزة لأسرة فتاة على صلة بهم، لكن لم يحدث توافق وفشلت إجراءات الزيجة فى مراحلها الأولى! علقت أمى قائلة.

– مسكين، حظه وِحش مع أنه طيب وابن حلال، دى يمكن خامس أو سادس مرة يروح يخطب والموضوع يفشل!

حكاية محرجة، اللجوء إلى زواج الصالونات ودخول بيوت الناس واللف والدوران بين المعارف والأقارب للبحث عن زوجة، وسط ترقب الجميع وانتظارهم لنتائج عملية التعارف وما ستسفر عنه الزيارات.. يا له من موقف صعب وسخيف!

أن يضع الإنسان نفسه تحت رحمة الاختبار، ومدى حرج أن ترى الفتاة وتجلس معها فى صالون بيتها بين ترحيب أهلها وحفاوتهم بك، ثم لا تعجبك ولا يكون هناك مفر من أن تقول لا، ومهما حاولت أن تكون مترفقاً ومهذباً وأنت تقولها معتذراً لمن توسطوا بينك وبين أسرتها، فإن وقعها سيكون جارحاً وقاسياً عليهم وعليها، أما لو كانت الفتاة جميلة أو على الأقل مقبولة لك وأبديت موافقتك ثم تلقيت رداً بالرفض لأنك لم تعجبها، فستشعر بالإحباط وستجد الأمر ماساً بكبريائك ورجولتك.

خطر على بالى لو أنى تعرضت لهذا الموقف – أعوذ بالله – وذهبت فوجدت ريدا هى الفتاة، ألم أكن سأفرح ساعتها وأبدى موافقتى على الفور، وأجلس على أحر من الجمر فى انتظار ردها! ليس لدىَّ أى فرصة خلال الإجازة لرؤيتها أو الاتصال بها، أعرف بيتها والعمارة التى تسكنها لكن بمَ يفيد هذا؟

29

قرب نهاية الإجازة وأنا أشب خارجاً من منتصف حمام السباحة دون استعمال السلم، لم أكد أمشى خطوتين حتى وجدت ياسمين وخطيبها تامر أمامى وهما يتمشيان أو فى طريقهما إلى مكان ما فى النادى، وقفت فى مواجهتهما بالمايوه وجسمى مبلل والماء يقطر من شعرى، لحظت على الفور ومن اللمحة الأولى أنهما الآن متزوجان، سارع تامر بتحيتى وهو يضحك مرحباً ومد يده ليسلم علىَّ غير عابئ ببلل يدى، شعرت كم أنه إنسان طيب القلب وشهم، ورجل محترم، تبادلنا عبارات التحية بينما وقفت هى بجواره تبتسم ابتسامة الموناليزا الناعمة ويدها فى يده، باركت لهما الزواج وهنأتهما.

ابتسمت متعجباً وأنا أتجه إلى طاولتى وألتقط المنشفة المفرودة على الكرسى، وضعتها على كتفىَّ وأنا أراقبهما وهما يبتعدان، الآن..

أقابلك! الصدفة التى سعيت خلفها منذ سنوات باستماتة.. تأتى الآن بعد أن انتهى كل شىء؟!

مررت بميدان سفير وأنا فى طريق عودتى للبيت، سرت على الرصيف الذى كنا نقف عليه لننتظر أتوبيس الكلية، ابتسمت وأنا أرى شجرة الفيكس قد كبرت وترعرعت، تضخم جذعها واستطالت فروعها وأغصانها وملأت مساحة كبيرة من الفراغ بأوراقها الداكنة الخضرة.

اتصلت بخالد، كنت أريد أن أراه وأتكلم معه، اتفقنا أن أذهب أنا إليه هذه المرة بدلاً من أن نتقابل فى وسط البلد أو أن يأتى هو إلى مصر الجديدة كما اعتدنا، يسكن مع أسرته فى فيلا قديمة من طابق واحد فى عمق حى المطرية، منطقة هادئة بالقرب شجرة مريم، تلك الشجرة التى يُقال إن السيدة مريم العذراء استراحت تحت ظلها ومعها المسيح وهو طفل رضيع، وإن الشجرة انحنت عليهما وظللتهما بفروعها وأغصانها.

وجدت بعض الصعوبة وأنا أبحث عن العنوان فى الشوارع الهادئة القصيرة المتقاطعة داخل المربع السكنى الصغير، بين الفيلات والقصور الصغيرة، التى بُنيت فى مطلع القرن العشرين، ومازالت تقاوم مظاهر القبح التى انتشرت حولها فى الحى الشاسع، بفعل الحكومة المصرية الكارهة للذوق والجمال، دست عمارات الإسكان الشعبى القميئة فى كل مساحة خالية وسمحت بإنشاء الورش

والدكاكين، وقضت على الحدائق التى كانت تزين الحى من الداخل وعلى الحقول التى كانت تمتد بلا نهاية حوله.. كان هذا كلام خالد عن الحى الذى يسكنه عندما أبديت إعجابى بالفيلا وحديقتها الجميلة التى جلسنا فى ركن منها، أخبرنى أنه يرعى الحديقة وأشجارها ونباتاتها هو وإخوته الثلاثة منذ وفاة الجنايني العجوز، الذى كان يأتى مرة فى الأسبوع على مدى ما يقرب من الخمسين عاماً، من أيام جدى.

– أنا لا أستبعد أن تفعل الحكومة فى مصر الجديدة، حيكم الذى تتباهون به، ما فعلته فى حينا هذا وحولته من حى أرستقراطى نظيف ومحترم إلى حى شعبى قذر وعشوائى!

– يا شيخ، فأل الله ولا فألك..

– دى حكومة وسخة طول عمرها، لا تقدم لشعب مصر إلا الخراب والفقر! هاهاهاها.

جرفنا حديث السياسة وابتعد بنا تماماً عما كنت أنوى الكلام فيه، أخذ خالد يلقى قصائده السياسية التى تتناول العديد من الأوضاع الاجتماعية وهى قصائد ساخرة وحادة، استمعت له وأنا أتظاهر بالاهتمام وقد شعرت بسخافة الحديث عن الحب والفتيات وخجلت أن أحول الكلام إلى هذه المنطقة، لم أخبر خالد حتى بأمر زواج ياسمين، لم تسنح الفرصة لذلك!

ما كنت أشعر به من شجن لم يكن شيئاً مقارنة بما كان ينتظرنى بعد أيام قليلة!

***

دخلت الكلية وأنا مستعد لحسم علاقتى بريدا هذا العام، عام البكالوريوس، وحشتنى جداً خلال الإجازة، كنت متلهفاً لرؤيتها بعد كل هذه الشهور، أشتاق إليها بكل ما فيها عينيها الزمرديتين، وشعرها الذهبى، وحضورها الطاغى، وكلامها وصوتها.. وجسدها الرائع البديع، لكنى كنت أعرف أن الأمر لن يكون سهلاً!

أعرفها منذ أن كانت فى الثامنة عشرة من عمرها، وكنت شريكاً لمسيرتها فى الكلية عبر السنوات الأربع الماضية، هذا القلق الذى كان يشعر به تامر تجاه علاقة خطيبته بزملائها الشبان والذى كان يدفعه للحضور إلى الكلية فى أى لحظة ليطمئن أنها لا تكلم أحداً، ويتعمد الوقوف معنا نحن زملائها حتى يتأكد من سلوكنا، هذا الشك لن يجد طريقاً إلى نفسى، فبرغم كل ما تتمتع به زوجته من احترام وخُلق سيظل هناك جانب سرى فى حياتها لا يعلم عنه شيئاً، قصة ما مرت بها فى بواكير الشباب، ستبقى وهى مغلفة ببعض المشاعر مدفونة فى غياهب النفس!

ذهبت متأخراً بعض الشىء لأننى ودعت الإجازة مع عماد وطارق وشريف بسهرة على النيل امتدت لقرب الفجر، قابلنى عبد الله فرحاً

متهللاً وسلم علىَّ بحرارة أدهشتنى وجعلتنى أشعر أن خلفها ما يريب، فقد كنا معاً أنا وهو وبقية أصدقاء الشلة منذ أيام!

نظر إلىَّ للحظات وعيناه تضحكان، ضحكة الشماتة التى أميزها بدقة وأحس بها وهى تتأجج بلا مبرر داخله، أو لمبررات تافهة لا تستحق! ما الذى غيره وجعله يتحول من صديق مخلص إلى هذا المسخ الذى يقف أمامى الآن، يُظهر الصداقة بينما داخله يموج بالعكارة!

ألقاها فى وجهى ببطء، متمهلاً، مستمتعاً بكل حرف ينطقه.

– هل عرفت؟ فريدة اتخطبت!

صرخت فيه منفعلاً.

– أنت كذاب.

ضرب الدم فى رأسى وشعرت بخفقة قوية أعلى معدتى كأن روحى تُسحب إلى أسفل، ضاق صدرى وعجزت عن التنفس للحظات، كان اللاوعى فى نفسى يفعل كل ما بوسعه لتكذيب الخبر والعقل الباطن يقوم بمناوراته الساذجة لرفض التصديق..

خفتت ابتسامة عبد الله وهو يرمقنى بخبث، ثم قال ببرود.

– البنات أخبرونى، تستطيع أن تسألهن لو أردت..

رددت عليه بصعوبة وقد جف حلقى تماماً حتى أصبح كالحجر.

– لا أريد شيئاً.

نظرت إليه والدوار يلف رأسى، أردت أن أسبه بأمه لأقطع علاقتى به نهائياً، لكنى تمالكت أعصابى، أدرت وجهى عنه ببطء ثم مشيت دون أن أسلم عليه..

إيه.. يا عبد الله ما الذى حدث لك؟ لم أفعل لك شيئاً، ولم أسئ لك يوماً، فلماذا؟ من أين أتى هذا الغل الذى رأيته على وجهك؟ ما الذى تريده؟ لماذا تبدو سعيداً هكذا بتعاستى؟ لن أنسى لك هذا الموقف أبداً ولن تعود صديقاً لى بعد اليوم.

مشيت بجوار الحديقة حتى وصلت إلى الطريق المؤدى للقسم، لم أستطع الصعود، لعلها هناك الآن فى المعمل، كيف سأقابلها؟ وبأى وجه ستلقانى؟ أعصابى تخوننى، أقاوم الرغبة فى البكاء، لم أشعر فى حياتى بمثل هذا القهر، أقف تحت شجرة من أشجار النخيل الملكى وأشعل سيجارة وأشرع فى تدخينها بعصبية.

كنت قد قررت وأنا فى طريقى للكلية، أنى سأصعد للقسم فقط لأسلم على زملائى ثم أقضى اليوم فى حديقة الكافتيريا معها ومع أصدقائنا، تعودنا هذه الخصلة خلال السنوات السابقة، لا نحضر أى دروس فى اليوم الأول!

هل هى هناك الآن؟ لا أجرؤ على الذهاب، كيف أقابل أصدقاء الشلة وأنا أشعر بكل هذا الخزى؟ لا أستطيع التظاهر بأن الأمر لا يعنينى، لن أتحمل الغمز واللمز ولا حتى نظرات الإشفاق.. ثم هى

أين ستكون؟ وكيف ستجلس معنا بعد ذلك؟ لابد لواحد منا أن يترك الشلة!!

كانت دائماً تقول إنها لن تفكر فى خطوبة أو زواج قبل الحصول على البكالوريوس، بل كانت تسخر من البنات اللاتى يخطبن أثناء الدراسة وتنتقدهن! هل يمكن أن يكون عبد الله كذب علىَّ؟ لا أظن، لا أعتقد أنه يجرؤ على ذلك.. لابد أن أتأكد من الفتيات، سأذهب لأراهن فى الكافتيريا الآن.

30

هبط نجيب من حيث لا أعلم، فجأة وجدته أمامى، سلم علىَّ مستغرباً أن أقف وحدى فى مثل هذا اليوم، اختلقت بعض الحجج الواهية وقلت له أنى فى طريقى للكافتيريا بالفعل، قال إنه مر عليها منذ قليل ووجد شلتنا مجتمعة هناك عن بكرة أبيها ما عدا أنت وفريدة، لذلك استغرب عندما وجدنى أقف وحيداً هنا!

هذا يعنى أنها ليست هناك، شجعنى هذا بعض الشىء على السير متثاقلاً وأنا أبذل كل جهدى للسيطرة على أعصابى والتماسك، وجدتهم فى مكاننا الأثير بالحديقة، وضعت على وجهى ابتسامة كبيرة، أعتقد كان من السهل عليهم اكتشاف زيفها، جلست فى أبعد مكان عن عبد الله وأدرت الكرسى قليلاً حتى لا أراه.

سمعت الفتيات يتكلمن عن خطوبة فريدة وهن يتضاحكن فيما بينهن بصوت خافت، يبدو أنها مشغولة مع خطيبها لذلك لم تحضر اليوم..

اللعنة.. شعرت بسامى وبقية الشبان وهم ينظرون نحوى بشىء من الإشفاق، بينما الفتيات ومعهن عبد الله يبتسمن، أخذت أرتشف القهوة وأدخن دون أن أتكلم، هناك رعشة خفيفة يصعب ملاحظتها فى أصابعى، ضغطت على يد الفنجان بقوة حتى لا يرتجف وأنا أرفعه لشفتىَّ، جو الجلسة عموماً ثقيل وغث، فسدت فرحتنا بأول يوم لنا بعد الإجازة، انتهيت من القهوة وقمت مغادراً، أخبرتهم أنى سأصعد إلى القسم لأرى الجدول.

قام سامى ومشى بجانبى مطأطئ الرأس، لديه همه الخاص هو أيضاً فقد رسب فى سنة ثالثة وسيبدأ سنة إعادة أخرى، لم نتكلم حتى وصلنا لمدخل القسم، قال وهو يتركنى.

– معلش ولا يهمك.

كيف سأقضى هذه السنة؟ كيف ستمر أيامها؟ وزمالتنا فى القسم كيف ستكون، سأراها على مدى اليوم رغماً عنى.. لا مهرب، بأى حال سأتعامل معها، وهل سأتعرف على خطيبها كما تعرفت على تامر من قبل؟! يا للتعاسة.. من أين لى بأعصاب تتحمل هذا العذاب؟

هذه المرة كيف سأنساها.. ومتى؟ كنت على أعتاب حبها، نويت.. فقط نويت أن أقترب منها لأبعد قليلاً من الصداقة، ولم أخطو الخطوة الأولى بعد.

***

لم تأت فى اليوم التالى أيضاً، فتحت الدولاب ووقفت أضع أشيائى فيه، نظرت بحزن إلى الركن الذى كانت تضع فيه البالطو وأدوات المعمل الخاصة بها، تلمست رائحتها فلم أجدها، أفتقدها.. شعرت بوطأة غيابها ثقيلة على نفسى، وقفت أتأمل مشاعرى وأنا أتذكر لحظاتنا فى هذا الموضع، أنتظرها حتى تخلع البالطو وتطويه بعناية داخل الكيس البلاستيكى ثم تضعه فى الدولاب وبجواره أدوات المعمل، بعدها تتناول حقيبة يدها التى تتركها فى الدولاب قبل دخول المعمل، وتتراجع خطوتين لتفسح لى المكان.. كنت أقف فى تلك اللحظات أراقبها بإعجاب حتى تنتهى ويحين دورى.

فى الأيام القادمة سأقف هنا بدونها، بالطبع لن تشاركنى هذا الدولاب وستبحث لها عن آخر، كيف ستتذكرنى؟ هل ستفتقد صحبتى كما أفتقدها أنا الآن، أم ستنشغل بخطيبها عنى وتنسانى هكذا ببساطة كأنى لم أكن؟ هذه المرة ليست كالمرة الأولى، أصعب وأشد بكثير، أكبر من مجرد حب فقدته.

فى الصباح سألتنى زميلاتنا فى القسم عنها، فلم أجد جواباً، لم أقدر على إخبارهن بأنها خُطبت وقد تكون مشغولة مع خطيبها الآن!

كانت تؤكد دائماً أنها لا تفكر فى أمر الخطوبة والزواج الآن، ما الذى غير تفكيرها أو موقفها؟ هل جاءها العريس الذى لا يمكن رفضه، فارس أحلامها؟ وأنا ماذا أكون وما الذى أمثله لها، كثيراً ما اعتقدت أنى فتاها وفارس أحلامها.

أتذكر الآن أو أدرك الآن فقط، بعد فوات الأوان، أنها هى وليست ياسمين الفتاة الأولى فى حياتى، أعجبتنى من أول نظرة، ساعتها تمنيت أن أعرفها، انشغلت بها لمدة طويلة قبل أن تظهر ياسمين فى حياتى، عندما فقدتها كانت مجرد حب ضاع ولم يكتمل، الحياة بدونها صعبة، أما فريدة فأشعر أن لا حياة لى بدونها، صحبتها ووجودها بجانبى على مدى سنوات هكذا ببساطة ودون أى سعى منى جعلنى لا أدرك ما كانت تمثله لى، الآن فقط أشعر وأحس.. بعد فوات الأوان، بعد أن فقدتها!

اليوم يمضى بطيئاً متثاقلاً، لا أرغب فى الكلام مع أحد، لم أفهم كلمة مما قيل فى المحاضرات أو السكشن، عقلى غائب، لا أجد حجة أرد بها على أصدقائى فى القسم أبرر بها ما أنا فيه! حتى خالد لم أرغب فى الكلام معه، نظرت إليه بوجوم كأنى لا أعرفه.

***

خرجت من بوابة الكلية إلى الشارع وبدأت فى السير، لم أكن غاضباً أو حزيناً أو حتى متألماً، كنت مخدراً لا أشعر بشىء، أمشى بلا أى إحساس قاطعاً الطريق الطويل من الكلية إلى مصر الجديدة،

والدموع تبلل وجهى، لم أكن أبكى على الإطلاق لكن الدموع كانت تسيل من عينىَّ وتنزل على وجهى من تلقاء نفسها بلا إرادة منى.
عندما وصلت البيت بعد أن قطعت المشوار مشياً، أخبرتهم أنى أصبت بدور برد شديد ولا أرغب فى الأكل، أريد فقط أن أنام، دخلت غرفتى وأغلقت بابها ونمت على الفور، نوم أقرب إلى الغيبوبة فلم أكن قد أغمضت عينىَّ فى الليلة الماضية للحظة واحدة.
حلمت حلماً جميلاً، كنت معها نتنزه على كورنيش النيل، ركبنا قارباً وجلست بجانبى وهى ملتصقة بى، كنا نتكلم ونضحك وأنا أمسك بيدها وأحتضنها وشعرها الجميل يتطاير فى الهواء وخصلاته تداعب وجهى.

***

خرجت فى الصباح دون أن أحلق ذقنى، صعدت سلم القسم بخطوات ثقيلة كرجل عجوز وأنا أحمل هم رؤيتها، اللحظة التى ستقع عيناى عليها وفى يدها دبلة الخطوبة ستكون بداية طريق طويل من العذاب، أشفق على نفسى من خوض هذه التجربة مرة أخرى، يااااا إلهى هذا كثير.
انتابنى شعور غريب وأنا أهم بفتح الدولاب، لا أعرف كيف شعرت بوجودها، ذرات من رائحتها ظلت عالقة فى الهواء وتسللت إلى داخلى فعرفتها، شددت الباب الصغير وقلبى يخفق، رأيت حقيبة يدها أمامى والكيس البلاستيكى الذى تضع فيه البالطو مطبق بعناية

بجانبها، عبق عطرها يملأ الدولاب، لقد عادت.. سأراها اليوم بعد طول غياب، للحظة فرحت ثم تذكرت بأسى أنها الآن مخطوبة، لابد أن تكون قد سألت الفراش أن يبحث لها عن دولاب آخر، ربما تنقل حاجاتها إليه اليوم.

استجمعت أعصابى وأنا أرتدى البالطو على مهل، مهما حدث لن أظهر أمامها كمهزوم، لابد أن أخرج من هذه العلاقة محتفظاً بكرامتى، يجب أن أسيطر على مشاعرى! سوف أسلم عليها وأبارك لها بمنتهى الثبات، وبعد ذلك يفعل الله ما يشاء، لا أحد يهرب من مصيره.

أتى بعض الزملاء، سلموا علىَّ وهم يدخلون المعمل، وحتى تكتمل التعاسة ظهرت بعدهم ياسمين، توقفت لتسلم علىَّ، تبادلنا تحية الصباح، ثم سألتنى.

– عامل إيه؟

ابتسمت رغماً عنى لذكرى هذا السؤال القاتل، تكلمنا لدقيقة أو دقيقتين قبل أن تكمل طريقها إلى قسمها.

31

دخلت المعمل وأنا أضغط على ضروسى لأخفف من توترى، رأيتها على الفور، تجلس وبجوارها مقعد شاغر، توقفت مكانى لعدة ثوان،

رفعت يدها بالتحية وهى تبتسم ضاحكة، غريبة.. ما هذا البرود؟ تقدمت ناحيتها عبر المعمل الواسع وسط نظرات الزملاء الفضولية، وأنا أحاول أن أرسم على وجهى ابتسامة لامبالاة، لاحظت أن وجهها يكتسى بسمرة خفيفة، سمرة شمس المصيف، حيرتى تزداد كلما اقتربت منها، لا شىء مما تخيلته ودار فى ذهنى خلال اليومين الماضيين حدث، جاء الواقع على عكس كل السيناريوهات المتوقعة، أجمل.. وأرحم بكثير، أرى ريدا التى أعرفها، صديقتى الجميلة وصاحبتى عبر سنوات كما هى، لم يتغير فيها شىء، استغربت وتحيرت من سلوكها، هل تعتقد أن خطوبتها أمر عادى لن يؤثر على صداقتنا؟! أم أن هناك شىء ما يكمن فى انتظارى؟

أتأملها وأدقق فى تفاصيلها وسرعة خطواتى تزداد، لم أعد أطيق، أريد أن أعرف، تركيزى منحصر فى يدها اليمنى، أصبعها البنصر تحديداً، أمد يدى لأسلم عليها، أقبض على كفها للحظات وأحتويها ضاغطاً برقة على أصابعها، وأنا أتفحصها بلهفة.

آآآآآآآآآه.. يا ولاد الكلب يا كذابين.. ضحكتوا عليا، رقص قلبى فرحاً، جلست بجانبها وأنا لا أتمالك نفسى، وهى تنظر لى مندهشة، بالتأكيد كنت فى حالة غير طبيعية، قالت بقلق وهى تلتفت ناحيتى.

– مالك.. شكلك عيان؟

قلت وأنا أضحك بسعادة.

– أبداً.. سوف أشرح لك بعد المحاضرة.

كان دكتور المادة قد دخل المعمل واتجه إلى مكتبه على المنصة ليبدأ المحاضرة، فسكتنا رغماً عنا.. ظللت طوال المحاضرة أسرح مبتسماً وأنا أفكر فى هذا المقلب وما حدث لى بسببه.

***

سألتها ونحن ننزل من القسم عن سبب غيابها، فقالت إن أباها كان مشغولاً فى عمله طوال الصيف ولم يستطع أن يسافر للمصيف إلا فى الأسبوع الأخير من الإجازة، وإنها أخبرت البنات قبل أن تسافر بأنها سوف تتأخر ليومين أو ثلاثة عن بداية الدراسة..

مشينا إلى الكافتيريا وأنا أعانى من الفرحة العارمة أكاد أقفز على الأرض، منتشياً سعيداً وقد زال كل ما عانيته من هم وغم فى لحظة، أشكر الله وأحمده مع كل خطوة، لاحظت هى ذلك، فتوقفت قائلة.

– مالك.. أنت لا تبدو طبيعياً اليوم!

– طبعاً، لأنى سعيد بعودتك.

اتسعت ابتسامتها حتى بانت أسنانها الناصعة وضحكت ضحكة صغيرة مندهشة قبل أن نعاود المشى، لم أخبرها عن المقلب الذى شربته حتى الثمالة ولا لمحت لها بكلمة عن خطوبتها المزعومة، ادخرت لها المفاجأة لتعرفها بنفسها من فتيات الشلة عندما نلتقى بهن.

زعلت وضربت الأرض بقدمها فى عصبية والبنات يضحكن حولها وهن ينظرن ناحيتى بمكر، كنت منشرح الصدر وفى حالة من السعادة لا أبالى معها بشىء، جعلتنى لا أتسامح معهن وحسب بل أمتن لهن ولمكيدتهن الصغيرة التى دبرنها بإحكام وعلى سبيل الهذار! كان أصدقاؤنا الشبان ومعهم سامى يتابعون المشهد متعجبين وعلى وجوههم شبح ابتسامة ساخرة!

جاء عبد الله وجلس على الكرسى المجاور لى، لكزنى لكزته المعتادة ومال علىَّ وهو يضحك، نظرت إليه مبتسماً ونفخت دخان السيجارة فى وجهه فسعل دون أن يتوقف عن الضحك.

قمنا جميعاً لنذهب إلى سكاشن العملى، بمجرد أن ابتعدنا قالت مؤنبة وبشىء من الحدة، كان موضوع المقلب وكلام البنات عن خطوبتها مازال يضايقها، برغم كل محاولاتهن لمداعبتها.

– يعنى أغيب يومين أرجع ألاقيك متبهدل كده، والعيال ضحكوا عليك!

قلت وأنا أنظر بكل ما فى نفسى من عشق إلى وجهها وعينيها.

– كنت سأموت.. لما عرفت أنك اتخطبت كنت سأموت، من غيرك شعرت أن الحياة لا معنى لها.

فوجئت بكلامى، احمر وجهها خفراً وأطرقت برأسها، وقد تبدلت حالتها وزال أثر الغضب عن وجهها وانفرجت أساريرها، قالت برقة وبلهفة.

– بعد الشر عليك.

قلت بقوة وتأكيد وأنا أضغط على كل كلمة.

– من غير لف ودوران ومقدمات، أنا أريد أن أخطبك.. موافقة؟

سكتت ونظرت إلى الأرض وكادت تتعثر من الارتباك، لكنها لم تلبث أن رفعت رأسها ونظرت إلىَّ وقالت كأنها ترجونى.

– لا أريد أن أتزوج!!

لم أفاجأ بردها! تقريباً كنت أتوقعه لمعرفتى بطباعها وشخصيتها، قلت لها بهدوء وبشىء من الغلاسة، كأننا نناقش أمراً عادياً.

– لماذا؟

– هكذا، أنا حرة.. لا أريد الزواج!

قالتها بتحد وهى تنظر فى وجهى لكن بلهجة أقرب للمرح والدلال، الفتاة عندما ترفض بالفعل فإنها تكون حادة وقاطعة وربما غاضبة، وتستطيع بسهولة أن تقطع الأمل فى نفس من يعرض عليها الزواج.. لو أرادت!

كنا قد وصلنا لمبنى القسم، تركتها قائلاً وأنا أستدير عائداً، اطلعى لوحدك.. لن أحضر السكشن، فوجئت.. ولمع الغضب على وجهها لكنى لم أبال وأسرعت مبتعداً، برغم توقعى أن الأمر معها لن يكون سهلاً، وبرغم أسلوبها الناعم فى الرد فقد انتابنى الغضب، لقد رفضتنى بالفعل رغماً عن كل ما بيننا! أعلم أنه ليس رفضاً قاطعاً أو نهائياً.

إذا كانت ياسمين عصفورة لطيفة أو حمامة وديعة فإن فريدة أنثى صقر جارحة، لا تستسلم أو تخضع لأحد لكنى فى نهاية الأمر سوف أروضها! فقد أصبح لى مخالب وأنياب وخبرة سنوات لن تدعها تفلت من يدى، لا مجال للفشل هذه المرة!

هكذا أخذت أحدث نفسى وأنا أسير متجهاً إلى الكافتيريا، سوف أنتظرها حتى ينتهى السكشن.. جلست بمفردى، جميع الأصدقاء فى سكاشن العملى، أشعر بشىء من بالتوتر وبعض القلق، لقد أقدمت منذ قليل على خطوة مصيرية فى حياة أى إنسان، لكن شعوراً خفياً بالسعادة يتسلل إلى نفسى هادئاً ناعماً يدغدغ أعصابى برفق، هى تعلم الآن أنى أحبها، أبلغتها هذا بشكل صريح وبمنتهى القوة، دون ارتباك أو تلعثم! كما يحدث لأى شاب يُقدم على هذه الخطوة، ترى ما أثر هذا عليها؟ وفيما تفكر الآن، وكيف حالها هناك فى المعمل؟ وقفت تحت شجرة بالقرب من مدخل مبنى القسم، لا أواجه المدخل مباشرة لكنها لابد أن ترانى هى وجميع الزملاء وهم يغادرون القسم، لم يبق إلا دقائق على انتهاء السكشن ونزولها، ذكرتنى هذه الوقفة باللحظات التى كنت انتظر فيها ياسمين عند المحطة القريبة من بيتها! لحظات الفشل والحسرة، ليس لدىَّ أىٌّ من هذه المشاعر السادجة الآن، المقارنة التى مرت فى عقلى كالبرق جعلتنى أنتبه، الآن أدرك أن تجربتى مع ياسمين كانت بمثابة تدريب طويل وشاق وأيضاً مؤلم على الحب، خرجت منها أقوى وأكثر صلابة وتحملاً.

***

لمحتها وهى تنزل مكفهرة الوجه وسط زحام الطلبة، ظللت فى مكانى منتظراً رد فعلها، طبعاً رأتنى بوضوح، طوحت برأسها لأعلى لتسوى شعرها، حركتها المألوفة اللاإرادية عندما تكون متوترة، نظرت لى بطرف عينيها فى لمحة خاطفة وهى تمر..

لا تفعليها أرجوك، إذا كانت رغبتى فى الزواج منك تعنى أن تتعاملى معى بازدراء فإنك بهذا ترتكبين خطأً كبيراً، يعنى هذا ببساطة أنك لم تعرفينى ولم تفهمينى طوال هذه السنوات، وأن ما أعلنته لك من حب سوف يتبخر ويتلاشى دون أن يترك أثراً، بل الصداقة القوية التى بيننا سوف تنتهى كذلك وليس فقط الحب.. أسمح لك أن تتدللى كما تشائين وأتحمل غرورك وثقتك بنفسك ونرجسيتك، فهذه صفاتى أنا أيضاً بلا مكابرة، لا أقل عنك فيها وربما أزيدك وأستطيع أن أتفهمها وأتعامل معها، لكن التعالى والاحتقار لا..

بعد ثلاث خطوات توقفت، التفتت حيث أقف معلنة أنها تنتظر وأنها أيضاً غاضبة، تركتها تنتظر للحظات ووقفت أتأملها وأنا أبتسم..

بهدوء شديد وبمنتهى البطء والثقة تحركت ناحيتها، هذه الجميلة التى قالت إنها لا تريد.. وهى تقف فى انتظارى نافشة ريشها كأنثى الصقر المفترسة!

وأنا أطالع إحدى المجلات استوقفنى موضوع، لفت نظرى بشدة، صورتان متقابلتان، الأولى أبيض فى أسود مكتوب تحتها تاريخ يعود إلى خمسين سنة مضت، والثانية حديثة ملونة، فى الأولى يقف شاب وسيم فى غاية الأناقة وبجواره فتاة رائعة الجمال وهو يمسك يدها ويبتسمان للكاميرا، كانا فى شهر العسل، الصورة الملونة لرجل طاعن فى السن وبجواره سيدة عجوز وجهها مغطى بالتجاعيد، هما نفسهما الفتى والفتاة الشابان، يقفان نفس الوقفة وفى نفس المكان.. بعد مرور خمسين عاماً على زواجهما!

يااااه.. ما أشد قسوة الزمن! تخيلت نفسى مع فريدة فى الصورة الأولى، تقريباً كانا فى بدايات عشرينياتهما.. عمرنا الآن، هذا ما ينتظرنا فى النهاية! مصيرنا.. هذا لو عشنا حتى نصل لهذا العمر، برغم أن الموضوع كُتب بغرض التفاؤل والدعوة للأمل، لكنى على العكس من ذلك أصابنى الإحباط وشعرت بالأسى وأنا أنتقل بنظرى بين صورة الفتاة الجميلة والمرأة العجوز التى ستتحول إليها، إنها شقراء مثل ريدا ورقيقة الجلد، هذا الجلد الناعم الناصع البياض يصاب بالتجعد أسرع من غيره، لا أستطيع تخيل وجهها الجميل وقد امتلأ بالتجاعيد! ولا أستطيع تخيل نفسى وقد أصبحت رجلاً عجوزاً!

الكبار يقولون إن الزمن يمر بسرعة، أسرع مما نتخيل بكثير، أمل من حكايات أبى وأمى عن شبابهما، وكيف كانت الدنيا زمان أجمل مما هى عليه الآن، أحب زمنى وأستمتع بالعيش فيه، كيف سأكون عندما تصبح أيامى فيه ماضياً، مازلت أتذكر سنة أولى وأيامى فيها ونحن أصغر الطلبة سناً.. أغلقت المجلة وألقيت بها بعيداً!

***

أعراض الحمل بدأت فى الظهور على ياسمين مع منتصف الترم الأول، مظهرها بالنسبة لى وهى تمشى بصعوبة ببطنها المنتفخ بدا مثيراً للشفقة وإلى حد ما.. مضحكاً! أحد زملائنا ممن يجيدون تقليد شخصيات الآخرين وأصواتهم بطريقة كوميدية ساخرة، سوف يصبح ممثلاً مشهوراً بعد تخرجنا، كان يقلدها فيما بيننا بعيداً عن الفتيات!

يضع يده اليسرى خلف ظهره ويمد اليمنى أمامه ويفتح رجليه على آخرهما، ويمشى وهو يتأوه نادباً حظه داعياً على عذاب الحمل والولادة بكلمات ساخرة بذيئة، كانت تجعل الجميع يتساقطون حوله من شدة الضحك! كنت لا أملك نفسى من الابتسام وأنا أراه فزميلنا هذا كان خفيف الظل ومضحكاً بطبيعته، لكنى لم أكن أضحك.

كان خالد يترفق فى الضحك وهو ينظر لى ليرى تأثير المشهد على وجهى، بالنسبة لى ستظل إنسانة عزيزة على قلبى لا أحب لأحد أن ينالها بسوء أو يسخر منها..

خالد دخل فى قصة حب جديدة مع بداية العام، عرفت متأخراً أن قلبه لا يستقر على حال ومر على فتيات بعدد السنوات التى قضاها فى الكلية، هذا العام يحب فتاة لطيفة ممتلئة الجسد إلى حد ما وتُعد جميلة جداً مقارنة بفتاة العام الماضى!

***

اكتشفت أن ريدا كانت تعرف تفاصيل علاقتى بياسمين منذ البداية، وأن ما ظننته سراً لا يعرفه إلا أصدقاء الشلة الشبان كان معروفاً لدى فتياتها أيضاً!

لم تستطع ياسمين أن تدخل امتحانات الترم الأول بسبب الحمل وانقطعت عن الكلية لبقية العام! مازلت أقابلها بين الحين والآخر فى النادى مع أولادها، نسلم على بعضنا بحرارة كزملاء قدامى ونتحدث معاً لبعض الوقت عن حياتنا وعن ذكريات الكلية، ورغماً عنى ينتابنى شىء من الشجن بعد أن يمضى كل منا فى طريقه، وأنا أتذكر أيامنا فى سنة أولى..

صدر للكاتب:

1- الملك ينزل المدينة – مجموعة قصصية – دار ميريت – 2006.
2- خيانة الجسد – مجموعة قصصية – 2008.
3- مصير بيكاسو – رواية – الحضارة للنشر – 2009.
4- مولانا – رواية – الحضارة للنشر – 2010.
5- ليلة التحرير – رواية – الحضارة للنشر – 2011.
6- مراكب الليل – رواية – الحضارة للنشر – 2012.
7- سجن الطاووس – رواية – الحضارة للنشر – 2014.

الجوائز:

1- جائزة الدولة التشجيعية فى الأدب لعام 2013 عن رواية مولانا.
2- جائزة اتحاد كتاب مصر فى الرواية لعام 2014 عن رواية سجن الطاووس.

أعمال غير منشورة:

1- عصفور حديقة حواء – مجموعة قصصية.
2- صاحب المنصب الرفيع – مجموعة قصصية.